بناء الأسلوب في سورة الحاقة

الدكتور/ إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن
أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة العريش

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى بيان البنى الأسلوبية المكونة لسورة الحاقة المكية، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تم تقسيم السورة إلى عناصرها الرئيسية، وقد اشتملت السورة بعد المطلع على خمسة مشاهد، هي: مصارع المكذبين، ومشهد القيامة المروع، وغبطة الناجي وجزاؤه، وحسرة الخاسر وعقوبته، وبشاعة التكذيب بالقرآن.

وتم رصد أبرز البنيات الأسلوبية عبر المستويات (الصوتية والمعجمية والصرفية والتركيبية) وتفاعل هذه البنيات في بناء دلالة النص وتشكيل جمالياته.

وتبين من خلال هذا الرصد مدى تنوع الأسلوب في الأداء القرآني، وكثافة البنى الأسلوبية فيه؛ ولذلك جاء المعنى في أعلى درجات الدقة، مما يكشف عن بلاغة إعجازية.

الكلمات المفتاحية: سورة، الحاقة، بناء، الأسلوب.

Research Summary:

This research aims to clarify the stylistic structures that make up the Meccan Surah Al-Haqqah, and in order to achieve this goal, the surah was divided into its main elements. And the ugliness of denial of the Qur'an.

The most prominent stylistic structures were monitored across the levels (phonetic, lexical, morphological and synthetic) and the interaction of these structures in building the meaning of the text and shaping its aesthetics.

Through this monitoring, it became clear the extent of the diversity of style in the Qur'anic performance, and the

intensity of stylistic structures in it. Therefore, the meaning came in the highest degree of accuracy, which reveals a miraculous eloquence.

Keywords: Surah, Al-Haqqah, Structure, Style

تقديم

الأسلوب – في اللغة –: «السطر من النخيل، والطريق يأخذ فيه. وكل طريق ممتد فهو أسلوب. والأسلوب: الوجه والمذهب، ويجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه: طريقته. وكلامه على أساليب حسنة. والأسلوب: الفن. يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه»(١)، والفن: جُمْلَة الْوَسَائِل المستعملة لإثارة المشاعر والعواطف، وبخاصة عاطفة الْجمال كالتصوير والموسيقى ومهارة يحكمها الذَّوْق والمواهب(٢).

وعلى هذا، فالأسلوب يعني: أن يتبع المتكلم طريقة بحيث يأتي الكلام منتظمًا متسقًا، متبعًا في ذلك جملة من الوسائل اللغوية الإيقاعية والتصويرية، بقصد إثارة المشاعر والعواطف.

وهذا التعريف يتقاطع في بعض جوانبه مع المفهوم الاصطلاحي للأسلوب؛ فالأسلوب – في الاصطلاح – «طريقة الكاتب الخاصة في التفكير والشعور، والطريقة الخاصة في الشعور تفرض طريقة خاصة في استخدام اللغة»(٣)، وهو «صفة لغوية توصل بدقة العواطف أو الأفكار، أو مجموعة من العواطف والأفكار، ... ويكون الأسلوب كاملاً عندما يتم توصيل الفكر أو العاطفة على الوجه الأكمل»(٤)؛ حيث يقوم المنشئ باختيار سمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف، ومجموعة الاختيارات الخاصة هي التي تشكل أسلوب المتكلم الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين.

وقد عُرِّفَ الأسلوب بأنه «كل شكل مكتوب فردي ذي مقصدية فردية»(٥)، أو هو: «البروز الذي تفرضه بعض لحظات تعاقب الجمل على انتباه القارئ؛ فاللغة تعبر، والأسلوب يبرز»(٦).

وهذا يعني: أن دراسة أسلوب نص ما لمتكلم أو كاتب تدعونا إلى البحث عن السمات الفردية اللغوية فيه، ابتداءً من النص ذاته؛ لأنه صرح مكتمل ينبغي تتبع سمة الفردية فيه، وهذه السمة الفردية هي الأسلوب(٧) الذي يعبر عن تفرد النص بسمات فنية تميزه عن غيره من النصوص من الناحية الصوتية والصرفية والتركيبية والتصويرية والمعجمية والدلالية. وانتهاء بالمتلقي الذي يتفاعل مع النص؛ إذ المتلقي له دوره المهم في عملية التواصل، وهذا ما تقوم عليه أسلوبية التلقي؛ لأنه

يحدث تفاعل بين المتلقي عن طريق ما يسمى (المنبه والاستجابة)؛ حيث إن النص محمل بالعديد من الشفرات التي هي بمثابة منبه يثير فضول المتلقي ويلفت انتباهه ويستدعي منه الاستجابة.

ومعنى هذا أن النص يكتنفه طرفان يشكلان فكرة التواصل، هما: المنشئ الذي يشفر، والمتلقي الذي يقوم بفك الشفرة، ومعنى هذا أن التحليل الأسلوبي لا يستقل بالنص في ذاته كالبنيوية، بل إنه يفسح في تحليله للنص مكانًا لمنشئ النص ومكانًا للمتلقي.

وفي هذا البحث سنتتبع طرق بناء الأسلوب (صوتيًّا وصرفيًّا وتركيبيًّا وتصويريًّا ومعجميًّا ودلاليًّا) في سورة من سور القرآن، هي: سورة الحاقة، مع الوضع في الاعتبار قدسية المتكلم وهو: الله عز وجل، والمتلقي المرتجى استجابته للرسالة المتمثلة في نص السورة.

وسورة الحاقة من السور المكية التي نزلت – على أصح الأقوال – في العهد المكي قبل الهجرة. وهناك فروق عديدة بين السور المكية والسور المدنية من حيث الهدف والأسلوب والمضمون؛ فهدف السور المكية هو إرساء دعائم العقيدة الجديدة، وترسيخها في النفس محل العقائد الوثنية الباطلة، والتركيز على أخطر قضيتين، وهما: قضية التوحيد، وقضية السمعيات التي تشمل الأمور الغيبية: من بدء للخلق، ونهاية له، وبعث وحساب... إلخ؛ ولذلك وجدنا أسلوب السور المكية يميل غالبًا إلى: الإيجاز والتركيز ومواجهة أفكار بأفكار، وعقيدة بعقيدة، ومفاهيم للحياة بمفاهيم أخرى جديدة؛ بغية هدم عقائد المشركين السائدة وإزالة أنقاضها وتسوية هذه العقائد بالأرض لتشييد العقيدة الجديدة.

والسور المكية بعد هذا يهدف أسلوبها إلى هز السامع وإثارة وجدانه؛ ليتدبر ويفهم وينقاد؛ ولذلك يستعين الأسلوب لتحقيق ذلك بكل الإمكانيات اللغوية من ألفاظ ذات جرس شديد، أو صور رهيبة، أو إيقاع عنيف، وغير ذلك مما يوقظ العقل ويحرك القلب.

وهذه السور تميل إلى مجادلة المشركين وتفنيد دعاواهم الباطلة وتفصيل القصص لاستنباط العبرة؛ فاعتمدت لذلك الحجاج وإقامة الأدلة والبراهين؛ للإقناع وهزيمة الخصم والمعاند، وحمله على الإقرار بالحق، كما اتبعت أسلوب القص؛ قصّ أخبار الأمم السابقة وما نزل بهم من الْمَثُلات؛ للاعتبار والاتعاظ بما جرى لهم لما كذبوا وعاندوا الحق واتبعوا الباطل.

أما السور المدنية التي نزلت بعد أن انتشر الإسلام فقد كان هدفها أن تفصل الحديث عن: علاقة المسلمين بربهم، وعلاقتهم بعضهم ببعض، وعلاقتهم بغيرهم، وأن تضع الأحكام والشرائع التي تضبط كل هذه العلاقات وتنظم شؤون الحياة، وترشد المسلمين – على العموم – إلى كيفية بناء الإنسان وإقامة المجتمع المسلم المبشر بانتشار الإسلام وسيادته؛ ولذلك اختلف أسلوبها اختلافًا يتفق

واختلاف أهدافها عن السور المكية؛ فمال الأسلوب إلى التفصيل والإطناب، وطالت الآيات ومالت إلى الاسترسال، وهدأ الإيقاع، وخفتت نبرة الوعيد والتهديد والإنذار، وعلت نبرة الوعد والتطمين والتبشير.

ولخص بعضهم الفروق الأسلوبية والمضمونية بين المكي والمدني من القرآن بأن قال: «توجد فروق أخرى بين المكي والمدني ...، وهذه الفروق فيها دقة عن تلك لتعلقها في مجموعها بأمور معنوية وبلاغية.

ونذكر من خواص القسم المكي أنه قد كثر فيه ما يأتي:

أولاً- أنه حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة؛ للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال؛ حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج: ٧٣].

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام، وسَفَّهَ أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق، وقبّح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد: ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٠]، وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جحود الإلهيات والنبوات وإنكار البعث والمسؤولية والجزاء.

ثانيًا- أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق، وعلى ما في الكون من أعلام الرشد، ونوّع لهم في الأدلة، وتفنن في الأساليب، وقاضاهم إلى الأوليات والمشاهدات، ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته والإيمان بالبعث ومسؤوليته والجزاء العادل ودقته، ثم التسليم بالوحي وبكل ما جاء به الوحي من هدي الله في الإلهيات والنبوات والسمعيات في العقائد على سواء.

ثالثًا- أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة؛ كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال الأيتام؛ فلفت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار، وما زال بهم حتى طهرهم منها، ونجح في إبعادهم عنها.

رابعًا- أنه شرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع شرحًا عجيبًا؛ كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وفوضى الجهل وجفاء الطبع وقذارة القلب وخشونة اللفظ، وحبب إليهم الإيمان والطاعة والنظام والعلم والمحبة والرحمة والإخلاص واحترام الغير وبر الوالدين وإكرام الجار وطهارة القلوب ونظافة الألسنة، إلى غير ذلك.

خامسًا- أنه قص عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر من تقرير سننه تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان والإحسان مهما طالت الأيام وامتد الزمان ما داموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان.

سادسًا- أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه؛ حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة الحجم؛ لأنهم كانوا أهل فصاحة ولَسَنٍ، صناعتهم الكلام وهمتهم البيان؛ فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب.

كما أن قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد، وأن يقدم الأهم على المهم، ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات؛ لأن الأُولَى كالأصول بالنسبة للثانية؛ لذلك كَثُرَ في القسم المكي التحدث عنها والعناية بها كما علمت في الخواص الماضية؛ جريًا على سنة التدرج من ناحية، وتقديمًا للأهم على المهم من ناحية أخرى.

أما خواص القسم المدني فنذكر منها أنه قد كثر فيه ما يأتي:

أولًا- التحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات، انظر - إن شئت - في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح والحجرات ونحوها.

ثانيًا- دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وبيان جناياتهم على الحق وتحريفهم لكتب الله ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ، اقرأ - إن شئت - سورة البقرة وآل عمران والمائدة والفتح ونحوها.

ثالثًا- سلوك الإطناب والتطويل في آياته وسوره؛ وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة في الذكاء والألمعية وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان فيناسبهم الشرح والإيضاح، وذلك يستتبع كثيرًا من البسط والإسهاب؛ لأن دستور البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال وخطاب الأغبياء بغير ما يخاطب به الأذكياء، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]»[٨]

وسورة الحاقة تُعَدّ مثالاً رائعًا للسور المكية المتفقة معها في الهدف والأسلوب والمضمون؛ فهي تهدف –كما تهدف جميع السور المكية – إلى بيان جدية العقيدة الجديدة التي جاء بها محمد ﷺ، بحيث إنها لا تحتمل هذا العبث الصبياني من المشركين؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يتم البناء العقدي للبشرية؛ فيكمل محمد ﷺ ما بدأه إخوته من الرسل السابقين، ويختم رسالات السماء إلى الأرض؛ ولذلك وجدنا التهديد والتعنيف يظللان جو السورة في البدء والختام، ويمهدان لترسيخ العقيدة الجديدة، وإزالة الأوهام المعششة في عقول المشركين.

وقد وجدنا هذا كله يتضح من طريقة بدء السورة بالحديث عن النهاية بتلك الطريقة المدهشة: آيات قصيرة متدرجة، تبدأ بكلمة واحدة ﴿الْحَاقَّةُ﴾ تحمل تسمية جديدة ليوم القيامة، وبعد أن تقرعهم السورة بهذا الحديث المركز، تعرج على مصارع المكذبين الذين حادوا عن الصواب وهزأوا برسل السماء إليهم، فتعرضها السورة عرضًا سريعًا قويًّا يشد الذهن إلى تذكر المصير الرهيب لمن يهزأ؛ حيث لا مجال للهزء، ويكذب حيث يُطْلَبْ منه التصديق والخضوع.

ثم تعود السورة مرة ثانية إلى الحديث عن النهاية من خلال قفزة واسعة من الماضي السحيق إلى المستقبل البعيد وما فيه من نهاية رهيبة للكون ومشهد جليل للحساب، فنظام الكون الرتيب يصيبه الاختلال؛ إذ تتفتت الأرض والجبال وتنشق السماء وتنفرط نجومها، وتتجلى العظمة الإلهية مستوية على العرش الذي تحمله الملائكة، ويكون الحساب لكل ما قدمت يد الإنسان الذي يعرض لهذا الحساب لا تخفى منه خافية، وتشهد على الناس ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، وهنا تبرز مسؤولية الإنسان عن أعماله وضرورة استعداده لتحمل نتيجة هذه المسؤولية؛ فبعد الحساب نلمس ذلك التناقض في المصير بين المصدِّقين والمكذِّبين، وموجبات هذا المصير لكل منهما.

ثم تتعرض السورة لجلاء قضية الوحي، وتقرير أنه من عند الله سبحانه تعالى، وبيان سخافة الافتراءات التي ألصقوها بالرسول، ممهدة لذلك كله بقسم تخشع له النفوس، وتهتز له القلوب: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠]، ثم تنفي عنه ﷺ صفة الكهانة والشعر، وتؤكد هذا المعنى بطريقة تبين فظاعة افترائهم وشناعته، وتقرعهم غاية التقريع، عندما تفترض فرضًا يستحيل حدوثه، وترتب عليه جزاءً خطيرًا وعنيفًا، وهذا الافتراض هو ماذا لو أن الرسول قام باختلاق القرآن ماذا ستكون عقوبته؟ إنها عقوبة أليمة شديدة؛ إذ إن الله لا يسمح بالكذب ولا يرضى به ولا يقبله من أحد مهما كان: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ**

﴿حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، فهنا تعريض بالمشركين الذين شككوا في القرآن، فهم المقصودون بهذا الأخذ الحاسم والتهديد الجازم؛ لأنهم هم المفترون وهم المكذبون.

ثم تختتم السورة بتقرير حاسم وجازم فيه القول الفصل في تلك القضايا: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الحاقة: ٤٨-٥٢]

أما وأن السورة الكريمة قد احتشدت لبيان خطورة العقيدة وجديتها وزلزلة هؤلاء المكذبين، ومحاولة استنقاذهم من باطلهم الذي هم فيه يعمهون، وزجرهم بتجسيد المصير الفاجع الذي ينتظرهم في الآخرة. بعد أن علموا طرفًا منه من خلال ما لحق بأسلافهم الضالين، أما وأن السورة قد احتشدت لهذا كله فقد تكفل إيقاعها الصوتي ومعجمها اللفظي وبناء تراكيبها وأساليبها وصورها في الإقناع بذلك كله.

وهذه السورة الكريمة اشتملت بعد المطلع على خمسة مشاهد وخاتمة، وسنعرض لهذه الأجزاء في الصفحات الآتية، من حيث: بناء الأسلوب ودقته، وما تحقق في السورة من بلاغة إعجازية.

مطلع السورة – الترهيب من يوم القيامة:

اسْتُهِلَّتِ السورة بقوله تعالى: ﴿**الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**﴾ [الحاقة: ١-٣]، هذا الاستهلال ذو الإيقاع الهادر الناشئ عن تلك الجمل القصيرة المتدرجة، والامتدادات الصوتية الجهيرة الناشئة عن المد المفتوح المتكرر خمس مرات، وغلبة الأصوات المجهورة على المهموسة، وصوت القاف الانفجاري المتكرر ثلاث مرات مع ما يتبعه من سكتة على الهاء في آخر كل آية من الآيات الثلاث، تعاضده أصوات أخرى انفجارية، هي: الدال وهمزة القطع والكاف، هذا بالإضافة إلى تكرار كلمات (الحاقة، وما)، كل هذا أوجد هذا الإيقاع الهادر في مفتتح السورة، فلِمَ جاء هذا الإيقاع بهذه الجهارة منذ البداية، مع أن الأصل في الإيقاع الصوتي أن يبدأ هادئًا خفيضًا، ثم تعلو نبرته تدريجيًّا؟

أقول: إن الإيقاع الجهير عالي النبرة في البدء مدعاة لاستثارة السامع وتنبيهه إلى خطورة ما سيلقى على مسامعه، وفيه لون من الإنذار والتحذير، والأمر هنا كذلك، فقد أراد الحق سبحانه التحذير والإنذار من ذلك اليوم يوم القيامة، ولعل الاستفهام في الآية الثانية وفي الآية الثالثة: ﴿مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)﴾ يؤكد هذا؛ لأن كلًّا من الاستفهامين يفيد التفخيم من شأن الحاقة وتعظيمها، والتهديد والوعيد من خطورتها؛ فهي القيامة أو الساعة «التي فيها حقائق الأعمال،

يحق للمؤمنين عملهم، ويحق للكافرين عملهم»[٩]، أو «التي تحقّ فيها الأمور، ويجب فيها الجزاء على الأعمال»[١٠]، أو التي «حقت لكل عامل عمله، وتُحِقُّ لكل ذي حق حقه، فإن كان من أهل النار استوجبها، وإن كان من أهل الجنة دخلها»[١١]، أو لأنها واقعة حقيقة من غير شك.

وجاء لفظ (الحاقة) على صيغة اسم الفاعل مع إضافة التاء التي تنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية؛ للتعبير عن سمة من سمات يوم القيامة ونازلة من نوازله؛ إذ إن هذا اليوم «سمي بأسماء النوازل التي تكون من البلايا والشدائد؛ ليقع بها التخويف والتهويل، وليس في تبيين وقته ولا في ذكر عينه ترهيب ولا ترغيب؛ فذَكَرَ ذلك اليوم بالأسباب التي هي أسباب الزجر والردع»[١٢]، فحتى العدول عن الاسم الأصلي إلى اسم جديد فيه ما فيه من الاستثارة والتنبيه إلى خطورة هذا الأمر وعظيم شأنه، فكلما تعددت الأسماء للأمر الواحد دل ذلك على أهميته، وعلى تعدد خصائصه وصفاته، فعلى هذا فيوم القيامة خطير، والأمور التي يُبْتَلى بها الخلق فيه متعددة، والأصل أن القيامة سميت بالأحوال التي يبتلى الخلق بها فيها؛ من نحو: الحاقة، والقارعة، والواقعة، والتناد، والطامة، والصاخة، ونحو ذلك مما جاء في القرآن، أُخِذَتْ أسماؤها من أحوال ما يبتلى الخلق بها[١٣].

ثم انظر إلى العدول بالأسلوب عن طريق تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بوضع الاسم المظهر موضع المضمر، فظاهر الكلام أن يقال: الحاقة، ما هي؟ وما أدراك ما هي؟ ولكن الحق كرر الاسم بلفظه مرتين بعد المرة الأولى: ﴿مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)﴾؛ وذلك لزيادة تمكين اسم (الحاقة) في النفوس وتقريره وتثبيته في العقول والأذهان؛ إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ في إبراز المعنى وتقريره في النفس من الضمير، والغرض التنبيه إلى ما يعنيه هذا الاسم الجديد ليوم القيامة، وما يشير إليه من معانٍ جديرة بالتأمل والتدبر؛ لأخذ الحيطة والحذر منه.

إن إيقاع السورة وألفاظها وأساليبها ليؤكد منذ البداية على جو الرهبة الذي أحاطت به المكذبين المعاندين؛ فبدأت بتسمية غير مألوفة للقيامة (الحاقة)، وهي في الوقت ذاته موحية بضلالهم وتكذيبهم؛ فلأنهم مكذبون بالحق فسوف يصلَوْن الأمرَّين في (الحاقة)، وجرس اللفظ يشعر بأننا أمام أمر واقع مطبق صارم: صخرة ضخمة تسَّاقط من عَلٍ فوق رؤوس المضلين، فهي حاقة؛ لأنها حقٌّ فتقع، أو فيها يحق الحق ويبطل الباطل.

ثم تضاعف الآيات الكريمة تعميق الشعور بهذا الإحساس، فالحاقة الأولى مبتدأ فصل عنه الخبر، وهذا يستدعي من السامع التساؤل: ما الحاقة؟ وما المراد بها؟ ولم يزد السؤال الأمر وضوحًا، بل زاده غموضًا! ونتوقع أن يأتي الجواب الواضح البَيِّنُ في المرة الثالثة التي يتكرر فيها اللفظ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)﴾، فإذا بنا نخبط في حيرة أشد، ونظل في ترقب وتلهف، ثم تترك السورة الإجابة

عن هذا السؤال إشعارًا بقصور علمنا عن بلوغ كنهه؛ لأنه أعظم من أن يحيط به إدراك، ومن أجل هذا التهويل والتفخيم كان وضع الظاهر مكان المضمر.

تلك موجات ثلاث متعاقبة متدرجة في الطول، يتوالى فيها السؤال والاستفهام، وتتكرر فيها كلمة جديدة في مدلولها للدلالة على يوم القيامة؛ لتوحي بجرسها بجسامة هول هذا اليوم من خلال القاف المشددة التي تقرع الأذن قرعًا، وبخاصة بعد المد الطويل الممهِّد لها والمظهر لشدتها، والمختومة بتاء مربوطة تنطق هاء، فتنطفئ فيها شدتها.

إن هذه المقدمة المثيرة بهذا اللفظ الذي تشكَّل في صور مختلفة، لتحث السامع حثًّا على التنبه والإصغاء والتدبر والاهتداء.

المشهد الأول– مصارع المكذبين:

بعد هذه الافتتاحية المثيرة اللافتة للانتباه، والتي تحمل في طياتها ترهيبًا وتهديدًا، وتوعدًا ووعيدًا، وإنذارًا وتخويفًا، يلف كل ذلك الإبهام والغموض؛ إذ كل هذا الترهيب والتهديد والتوعد والوعيد والإنذار والتخويف من شيء غيبي لا نعرف كنهه، وبدل أن يُفَصِّلَ لنا الحق سبحانه كُنْهَ هذا الغيبي وما سيقع فيه من أهوال تفسر لنا ما تحمله هذه الافتتاحية من تهديد ووعيد وإنذار وتخويف، إذا به جل شأنه ينقلنا من هذا المستقبل البعيد الذي لا يعلم إلا هو تعالى متى سيقع إلى الماضي الغابر السحيق الذي وقع وتحقق، ينقلنا إلى قصة بعض المكذبين بهذا اليوم، فيقول سبحانه ناقلًا لنا في لقطات ما حلَّ بهؤلاء من عقوبات مستحقة نتيجة كفرهم وطغيانهم وتكذيبهم بهذا اليوم المسمى هنا بـ(الحاقة): ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ٤-١٢].

وقد يقول قائل هنا: إن هذا المشهد (مشهد مصارع المكذبين) أتى مقطوعًا عن الافتتاحية قبله ومشهد القيامة المروع بعده: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ إلى آخر آيات المشهد؛ حيث إن الافتتاحية تتحدث عن القيامة، وإن كان الحديث عنها جاء مبهمًا، لكنه جاء مشعرًا بالرهبة وخطورة هذا اليوم، ومشهد القيامة المروع بيان وإيضاح لما أبهم في الافتتاحية، فيكون مشهد مصارع المكذبين كلام داخل بين كلامين ليس من جنسهما ولا قبيلهما، وهذا يؤدي إلى الإخلال

بوحدة النص وتماسكه، ويوقف تناميه الطبيعي وتقدمه نحو النهاية، وليس ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأرباب البيان؛ إذ الأحسن أن يكون الكلام مفصلًا مقسومًا على أبوابه، وأن يكون لكل نوع منه حيز وقبيل لا يدخل في قبيل غيره(١٤).

وليس الأمر على ما توهم هذا القائل، بل إن هذا النص في أعلى درجات الترابط والتماسك، والسياق المقامي واللغوي يؤكدان ذلك ويعضدانه، وذلك للأمور الآتية:

الأول- أن هذه الافتتاحية التي تنطوي على كل هذا الترهيب والتخويف من شيء مبهم، لا يعرف الإنسان ماهيته لو سمعه لأول مرة، قد يحمله أول ما يحمله على التساؤل بينه وبين نفسه: لماذا كل هذا التهويل والترهيب؟ ما السبب الحامل على ذلك؟ والنفس بطبيعتها تبحث أول ما تبحث عما يكون سببًا في جلب الخطر عليها قبل أن تفكر في كنه الشيء المسبب لهذا الخطر، تبحث عن السبب لتدفعه عنها ولتجلب لها الأمن والسلامة؛ لذلك نجد الحق سبحانه العالِمَ بدخائل النفس البشرية يعاجلها بذكر السبب؛ حتى تسلك سبيل السلامة، ففي أول لفظ - بعد هذه الافتتاحية التي عظَّمتْ من شأن الحاقة، وقذفت الرهبة في النفوس الحية منها – يتكشف السبب، وهو: التكذيب؛ يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ...﴾، والتكذيب بماذا؟ التكذيب بذلك اليوم المرعب المذكور في الافتتاحية: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)﴾.

وتعجيلُ الحقِّ سبحانه ذكرَ السبب هنا مما يستدعيه السياق المقامي، أو بعبارة البلاغيين: مما يقتضيه الحال؛ لأن قومه ﷺ «كانوا منكري البعث، ولم يكن عندهم من خبره شيء؛ وذلك أن الله تعالى لما ذكرهم من دلائل البعث إلى جهة تدركها العقول، والحكمة من إحالة التسوية بين الفاجر والبر، والمطيع والعاصي، وأنه لا يجوز خروج كون هذا العالم عبثًا باطلًا، والدلائل الأخرى التي لا يأتي عليها الإحصاء، فلما لم يقنعهم ذلك، ولم يتفكروا في خلق السماوات والأرض، ولا اعتبروا بالآيات، احتج عليهم بما لقي سلفهم من مكذبي البعث ومنكري الرسل؛ حيث استأصلهم، فلم يَبْق لهم سلف، ولا خلَفَ عنهم خلف؛ ليكون ذلك أبلغ في الإنذار، وذلك قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)﴾، ذكرهم بما حل بثمود وعاد وما أصابهم بتكذيبهم الرسل، يقول: سيصيبكم بتكذيبكم محمدًا ﷺ فيما يخبركم من الأنباء عن الله تعالى كما أصاب ثمود وعادًا بتكذيبهم رسلهم؛ لينتهوا عن تكذيبه. أو أنه يخبرهم أن ثمود وعادًا كذبوا رسلهم حتى صاروا إلى الهلاك، وندموا على ما سبق من تكذيبهم، فستندمون أيضًا إن دمتم على تكذيبكم محمدًا ﷺ فيما يأتيكم من الأنباء بعد موتكم، ثم ذكرهم نبأ عاد وثمود وإن كانوا مكذبين بتلك الأنباء؛ لئلا يبقى لهم يوم القيامة حجة، فيقولوا: ﴿**إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ولأنهم لو بحثوا عن

علم ذلك، لكانت هذه الآيات والأنباء تحقق لهم ذلك، فقد وقعت هذه الآيات موقع الحجاج، لولا إغفالهم وإعراضهم عنها، فانقطع عذرهم، ولزمتهم الحجة وإن تركوا الإيمان بها»[١٥]. فساقت الآيات السبب، ثم من بعده العقوبات الدنيوية التي حاقت بعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة بيوم القيامة؛ لتكون هذه العقوبات دليلًا وبرهانًا على صدق يوم القيامة، وأن من أوقع العقوبات في الدنيا قادر على أن يوقع بهم عقوبات أنكى وأشد يوم القيامة.

وكأن الحق سبحانه عدل هنا عن بيان (كنه يوم القيامة) إلى (سبب الترهيب والتخويف منه)؛ لأنه الأولى بحال السامعين، ولم يقرر السببَ تقريرًا، بل ساقه من خلال وقائع تاريخية محسوسة؛ ليكون ذلك أقوى في الحجة، وأوضح في البيان، وأدعى إلى الرهبة والخشية من أمر الحاقة الذي هوله يفوت الوصف.

الأمر الثاني- أن حديث الله عن يوم القيامة هو من الغيب الذي يقع فيه الشك والريبة؛ فأراد الحق سبحانه أن يقرر صدق هذا الغيب وثبوت تحققه، وبيان أن ما يقع في ذلك اليوم الذي هو من الغيبيات حقيقة لا مرية فيها، وأن المكذب سيناله من العقوبات، ولكي لا يكذب أو يرتاب أي أحد في وقوع ذلك بالمكذبين أتى الحق جل وعلا بتلك الوقائع التاريخية التي لا يستطيع أحد أن يماري في وقوعها، أو يماري في أن ما أصاب هؤلاء الأقوام نزل بهم حقًّا، فيكون ذلك بمثابة الدليل على صدق يوم القيامة وما يقع فيه من أحداث، وما ينال المكذبين فيه من عقوبات، فيكون ذلك حاملاً على الإيمان والتصديق بهذا اليوم، وبخاصة حينما يعاين المرء ما حلّ بهؤلاء المكذبين من عقوبات دنيوية بشعة وشنيعة، فكيف بعذاب الآخرة الْمُتوعَّد به، وهو أشق وأشد وأكبر وأخزى: ﴿**وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ**﴾ [الرعد: ٣٤] ﴿**وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ**﴾ [طه: ١٢٧] ﴿**وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُۚ**﴾ [الزمر: ٢٦] ﴿**وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰۖ**﴾ [فصلت: ١٦]. فإذا ما تبينت النفس سبب الوعيد المبطن في الافتتاحية، وعاينت النتيجة المترتبة على هذا السبب، واطمأنت أن هذا الوعيد حق بالدليل الذي تشهد له وقائع التاريخ التي تناقلتها الأخبار جيلًا بعد جيل، وتقوم الشواهد المادية على صدقها إلى اليوم، لانت وخشعت وصدقت بهذا الأمر العظيم الخطير: الحاقة، فإذا ما قَصَّتْ علينا الآيات وقائعه العجيبة التي هي فوق مستوى العقل البشري صدقت النفس هذه الوقائع دون تحير أو تشكك.

والأمر الثالث – وهو الأهم — أن التعبير بلفظ (القارعة) يربط الافتتاحية وهذا المشهد (مصارع المكذبين) بالمشهد التالي (أحداث يوم القيامة المروعة)، فالجو العام في هذه المراحل الثلاث

من مراحل السورة تكتنفه العقوبة وينذر بالأهوال العظام والنوازل الشداد، ولفظ (القارعة) بجرسه ودلالته يناسب ذلك، فهذا اللفظ في موضعه هذا يمثل نقطة ارتكاز أو محورًا تدور حوله دلالات المطلع والمشهدين، بل أكاد أقول: تتمركز حوله دلالات السورة كلها، هذه الدلالات المشبعة بجو العقوبة والتهويل والشدة والعنف، وهذا هو معنى القارعة؛ إذ الأصل في القرع: «الضرب، قَرَعْتُه أَقْرَعُه قَرْعًا، وَمِنْه المِقْرَعَة وَهِي خَشَبة تُضْرَبُ بهَا البِغَال والحَمِير»[١٦]، والضرب ينشأ عنه كل تكسر وتفتت، وبالضرب تقع العقوبة أيًّا كانت، و«معنى القارعة – فِي اللُّغَة – النَّازِلَة الشَّدِيدَة تنزِل عَلَيْهِم بأمرٍ عَظِيم؛ وَلذَلِك قيل ليَوْم الْقِيَامَة: القارعة. وَيُقَال: أنزلَ الله قَرعاءَ وقارعة ومُقْرِعة، ...، وَهِي الْمُصِيبَة الَّتِي لَا تدَعُ مَالاً وَلَا غَيره»[١٧]؛ ولذلك سميت القيامة بـ(القارعة)؛ «لأنها تقرع الناسَ بفنون الأفزاع والأهوال، وتقرع السماءَ بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار»[١٨]، فوضعت القارعة موضعها؛ لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال، ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب؛ تذكيرًا لأهل مكة وتخويفًا لهم من عاقبة تكذيبهم»[١٩]؛ ولذلك كان العدول عن اسم (الحاقة) إلى اسم (القارعة) دليلاً على دقة الأداء القرآني، فلم يقل سبحانه: كذبت ثمود وعاد بالحاقة، ولم يأت سبحانه بأي اسم آخر من أسماء القيامة كالطامة أو الصاخة أو يوم التناد أو الغاشية أو يوم الخروج ... إلخ.

والمتدبر لآيات القرآن يجد أن كل لفظ جاء في مكانه اللائق به «الذي إذا أبدل مكانَه غيرُهُ جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة؛ ذلك أن في الكلام ألفاظًا متقاربة المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، ...، والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك؛ لأن لكل لفظة فيها خاصية تتميز عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كان يشتركان في بعضها»[٢٠].

فلفظ (القارعة) هنا في موضعه الأشكل به؛ وذلك لأمرين: الأول- أنها جاءت في معرض الإخبار عن تكذيب عاد وثمود بيوم القيامة، والتكذيب بالحق الصراح يستوجب التقريع، أيًّا كان نوع هذا التقريع قولًا أو فعلًا، ولفظ (القارعة) والتقريع مأخوذان من أصل واحد، وهو: القرع، ومن ثم فهناك تشاكل بين لفظ (القارعة) والعقوبة التي يستوجبها التكذيب، والمشاكلة والملاءمة من البلاغة. والأمر الثاني- هو أن تكذيب ثمود وعاد بيوم القيامة استتبعه عقوبة دنيوية، وهي إهلاك ثمود بالصيحة، وإهلاك عاد بالريح الصرصر العاتية، وفي هذا الإهلاك لون من ألوان القرع، وهذا تشاكل أيضًا، فالقرع المشتق منه (القارعة) متشاكل مع ما نزل بهؤلاء من العقوبة الشديدة.

وجاء الفعل ﴿كَذَّبَ﴾ على صيغة (فَعَّلَ) بتشديد عين الفعل؛ لإفادة كثرة التكذيب وشدته، فهم كثيرو التكذيب، شديدو العناد، لا يقبلون الحق أبدًا، فليس تكذيبهم تكذيبًا عاديًّا.

وخص ثمود وعادًا دون غيرهم من المكذبين المذكورين بالتكذيب بيوم القيامة؛ لأنهم أشد القبائل تكذيبًا بالبعث، فقد قالوا في التكذيب بها: ﴿**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) ✱ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧]، وقدم ثمود على عاد «من حيث إن بلادهم أقرب إلى قريش، وواعظ القرب أكبر»[٢١].

وفي قوله: ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أسلوب من أساليب تخريج الكلام على مقتضى الظاهر؛ حيث عبر بالمظهر بدل المضمر، فـ«كان الأصل أن يقال: بها، ولكنه أظهرها بوصف زادها عظمًا وهولًا، فقال: ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾، أي: التي تقرع، أي: تضرب ضربًا قويًّا، وتدق دقًّا عنيفًا شديدًا للأسماع وجميع العالم بانفطار السماوات وتناثر النيرات ونسف الجبال الراسيات، فلا يثبت لذلك الهول شيء»[٢٢].

ولما جمعهم في التكذيب فصلهم في التعذيب لأجل ذلك التكذيب، فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥)﴾.

وبين ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤)﴾ و﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥)﴾.. كلام محذوف؛ فلابد أن قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤)﴾ يستدعي تساؤلات وأجوبة مفادها: كيف كان هذا التكذيب؟ ماذا فعلوا؟ فيكون الجواب: فعلوا كيت وكيت، وكذبوا بكذا وكذا، وهذا الجواب يستدعي التساؤل: فما الذي ترتب على تكذيبهم هذا؟ أو ما الذي حصل جراء هذا التكذيب؟ أو نحو هذا، فيكون الجواب: الإهلاك، وهذا الجواب يستدعي سؤالًا آخر: كيف كان الإهلاك؟ أو بم كان الإهلاك؟ ...، فلما كان كل هذا يدرك من فحوى الخطاب طُوِيَ، فوقع هنا إيجاز بالحذف؛ وعدل الحق سبحانه عن تفصيل كيفية التكذيب ونوعه إلى تفصيل العقوبة عليه فأتى سبحانه بالفاء الاستئنافية متبوعة بـ(أما) الموضوعة «للاستئناف بتفصيل جملَة قد جرى ذكرهَا»[٢٣]، و«فيها معنى الشرط والتفصيل... التزم معها حذف فعل الشرط وقامت هي مقامه»[٢٤]، وهذا إيجاز آخر، وفيها أيضًا معنى التوكيد، والغرض من كل ذلك: تعجيل الإخبار بالعقوبة، وأنها كانت عقوبة حاسمة؛ تنبيهًا للمخاطب وردعًا له وزجرًا؛ لئلا يفعل فعل هؤلاء فيصيبه ما أصابهم؛ ذلك أن هذا الانتقال المفاجئ من الفعل إلى الجزاء المترتب عليه جاء بمثابة الصدمة التي تدخل الرعب في قلوب المكذبين المعاندين، وتشي بقرب العقوبة منهم، وتوحي بأن عقاب الله قريب

من هؤلاء، وكذلك سرعة تنزل العقاب عندما يأذن به الله، وأن هذا الحذف يدل على غفلة هؤلاء المكذبين المعاندين حتى أنهم لم يكلفوا أنفسهم التفكير في عاقبة تكذيبهم وعنادهم، حتى نزل بهم العقاب على حين غرة، فلم يستطيعوا منه فكاكًا بتجنب أسبابه، فقد كانوا في فسحة من أمرهم، وكان التحذير من التكذيب والعناد يقرع أسماعهم ليل نهار، لكنهم ظلوا في غفلتهم حتى وقع العقاب: ﴿**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٤].

والعدول عن ذكر كيفية التكذيب ونوعه — هنا في سورة الحاقة — إلى بيان الجزاء عليه، هو الأولى بحال المتلاعبين في أخطر قضية، وهي قضية العقيدة، والذين يكذبون بالدعوة وبما جاء به محمد ﷺ ويدعون مرة أن القرآن شعر، ومرة أنه كهانة، فهم يكذبون أنه من عند الله مع إقرارهم قولًا وحالًا أنه كلام مباين لكلامهم، وأنه نسيج وحده، وأنهم لا يستطيعون مطاولته ولا مجاراته، ومع هذا يكذبون به، ويتلاعبون بعقيدة التوحيد التي جاء لدعوتهم إليها. بالإضافة إلى ذلك أن المباغتة بالجزاء مشاكل لبدء السورة بهذا الاسم الجديد ليوم القيامة (الحاقة) بما يتحمل به هذا الاسم من دلالات على: إحقاق الحقوق بمعاقبة من يستحق العقوبة، ومجازاة من يستحق الثواب، وهو موائم لجو السورة القائم من أولها إلى آخرها على إرساء مبدأ الثواب والعقاب في الحياة الدنيا والآخرة، وليس هناك استثناء لأحد في تطبيق هذا المبدأ إن خالف المأمور به أو انتهك ما نُهِيَ عنه، وبخاصة ما يتعلق بأمر العقيدة.

و(ثَمُودُ) هم قوم صالح، وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشام والحجاز في المنطقة التي تسمى وادي القرى[٢٥]، وقدم الحق ذكر عقوبتهم؛ لأن بلادهم —كما أشرت — أقرب إلى أهل مكة، وواعظ القرب أكبر.

وقد حذف الفاعل من (أُهْلِكُواْ)؛ وذلك للعلم، وهو الله جلت قدرته؛ إذ هو وحده القادر على فعل هذا الإهلاك الذي وقع بثمود بهذه الطريقة اليسيرة، بالصيحة، مجرد صيحة، فمن يستطيع فعل هذا؟ أن يهلك قومًا بصيحة، وهذا دليل على تمام القدرة.

ولم يقل: بالصيحة، بل استعار للصيحة الطاغية فقال: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، فصور الصيحة بطاغية متجاوز للحد في العدوان والتجبر؛ للدلالة على أن الصيحة كانت في غاية الشدة والقوة؛ ولذلك تركتهم جثثًا هامدة؛ «فالطغيان عبارة عن الشدة، والطاغي: هو العاتي، الشديد لا يراقب ولا يتقي، فوصف العذاب الذي أرسله عليهم أنه لم يُبْقِ منهم أحدًا، بل استأصلهم وأهلكهم بجملتهم»[٢٦].

وذهب بعضهم إلى أن الباء في قوله: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ يمكن أن تحمل على السببية، ويكون المعنى: أهلكوا بسبب طغيانهم وكفرهم بآيات الله، أو طغيانهم الذي طغوا في معاصي الله، أي: الذنوب، فيكون التعبير بـ(الطاغية) «صفة لأحوالهم التي كانوا عليها من شدة التمرد والعتوّ ومن طغيانهم التكذيب بالحاقة والقارعة، ففيه تخويف لأهل مكة أن سيهلكهم اللَّه تعالى إن لم ينتهوا عن التكذيب كما أهلك أُولَئِكَ»[٢٧]، وأيدوا هذا بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]، أي: بسبب طغيانها ومعصيتها.

وقيل: إن الطاغية هو عاقر الناقة[٢٨]، أي: أنهم أهلكوا بما أقدم عليه طاغيتهم من عقر الناقة، وكان واحدًا، وإنما هلك الجميع لأنهم رضوا بفعله، وقيل له: طاغية كما يقال: راوية الشعر، وداعية، وعلامة[٢٩].

والمعنى الأول – وهو أنه أراد بالطاغية: الصيحة الشديدة – أنسب وأشكل بالمعنى؛ «لأن الله إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذي أهلكها به، كما أخبر عن عاد بالذي أهلكها به، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ ولو كان الخبر عن ثمود بالسبب الذي أهلكها من أجله، كان الخبر أيضًا عن عاد كذلك، إذ كان ذلك في سياق واحد، وفي إتباعه ذلك بخبره عن عاد بأن هلاكها كان بالريح الدليل الواضح على أن إخباره عن ثمود إنما هو ما بينت»[٣٠]؛ لأننا لو قلنا: إن الطاغية مقصود بها الطغيان وتجاوز الحد في الذنوب والمعاصي، يكون إهلاك ثمود بالسبب، وإهلاك عاد بالريح، «والريح لا يناسب ذلك؛ لأنها ليست سبب الإهلاك، بل هي آلة، كما في الصيحة»[٣١] فهي أيضًا آلة الإهلاك.

ولما انتهى سبحانه من بيان العقوبة التي حاقت بثمود ثَنَّى بعقوبة عاد: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾، وعاد هم قوم هود، وكانت منازلهم بالأحقاف[٣٢].

واعتمد القول الحكيم أيضًا على أسلوب الإيجاز بالإتيان بـ(أما) التي تغني عن أداة الشرط وفعله، وحذف فاعل الفعل (أهلك) للعلم به؛ وذلك للدلالة على مباغتة العقوبة لهؤلاء المكذبين، وأنهم كانوا في غفلة عنها، وكذلك صدمة لأولئك المكذبين الجدد على طريق أسلافهم، وبيان لهم بأن التكذيب يجلب العقوبة التي تأتي الْمُكَذِّبَ دون إشعار؛ جزاء إعراضه وتكذيبه وإصراره على هذا التكذيب، وفي هذا ترويع ما بعده ترويع، وتحذير شديد لمن يخشى على نفسه، كما أن المباغتة ببيان العقوبة هنا أولى بحال المكذبين المصرين على عنادهم وشركهم؛ لأن ذلك تنبيه على خطأ ما هم عليه، وحمل لهم على معاودة النظر في موقفهم تجاه قضية العقيدة؛ مما قد يدعوهم إلى العودة عن تكذيبهم وعنادهم؛ طمعًا في النجاة.

والعقوبة لعاد كانت ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ عبر بـ(بريح) ولم يقل: برياح؛ (الريح) التي يوحي لفظها المفرد بالعقم والعذاب، وهو ما غلب على استعمالها في القرآن في مواضع عديدة، كما في حديث القرآن عن الذين كفروا: ﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ**﴾ [آل عمران: ١١٧]، وحديثه عنهم أيضًا: ﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**﴾ [إبراهيم: ١٨] وكذلك حديثه عن البشر الجاحدين لنعم الله المنكرين فضله ولا يذكرونه إلا في الضراء: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ [يونس: ٢٢]

وهذا على خلاف الرياح التي تستخدم في القرآن غالبًا في الخير، كما في قوله: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ**﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقوله: ﴿**وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ**﴾ [الحجر: ٢٢].

واستخدم اللفظ المفرد (الريح) مع العذاب واللفظ الجمع (الرياح) مع الخير للإيحاء بأن رحمة الله أعظم من عقوبته من جهة، وطلاقة قدرته من جهة أخرى؛ إذ أهلكهم بريح وليس رياح، ومع أنها ريح مفردة أوقعت فيهم من العذاب الشنيع والإهلاك الشنيع ما لم تره عين ولم يخطر على قلب، ولا يقدر على ذلك إلا قادر مطلق القدرة، فكأنه سبحانه يقول: أهلكوا «بأشق ما يكون عليهم وأيسر ما يكون في قدرتنا»[٣٣]، فهي سهلة ذلول مسخرة للواحد القهار مستعلية على هؤلاء المكذبين مبيدة لهم حتى استأصلتهم من جذورهم.

وتتضح قسوة هذه الريح وشدتها في وصفها بصفتين رهيبتين ﴿صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وقال: (صرصر) ولم يقل (صر) كما قال في موضع آخر: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾؛ لأن اللفظ الأول يفيد تكرار الفعل، فهي ريح شديدة البرودة قاصفة الصوت، مع توالي البرد وتكرر الصوت، وهذا أنكى في التعذيب وأشد في الإهلاك، بخلاف الآية الثانية فالبرد أخف وطأة وإهلاكه أقل بشاعة؛ لأنه مسلط على النبات وهو خلق من خلق الله طائع، وإهلاكه ليس من قبيل العقوبة له، بل من قبيل التمثيل على بوار السعي إن لم يكن مرتبطًا بإيمان صحيح وعقيدة سليمة، فالآية الثانية جاءت في معرض حديث القرآن عن الذين كفروا الذين لن ينتفعوا بشيء مما يملكون أو يفعلون ولن يفيدهم — وإن كان خيرًا — ما داموا كافرين.

ومادة (صَرَّ) تحمل دلالات أخرى غير شدة البرودة وعلو الصوت، منها: الحرمان والعزم والحزم والعلو والارتفاع والعطش، وكل هذا يدل على مدى ما أوقعته تلك الريح من عذاب قبل هلاكهم، فهم لم يموتوا موتًا سهلًا، بل ماتوا بعد معاناة شديدة.

ومما يؤكد شدة هذه الريح وقسوتها وصفها كذلك بأنها (عاتية)، أي: «الشديدة العصف، وأصل العُتُوّ والعُتِيّ: شدة التكبر، فاستعير للشيء المتجاوز الحد المعتاد تشبيهًا بالتكبر الشديد في عدم الطاعة والجري على المعتاد»[٣٤]، فهنا استعار العتو للشدة والقهر بجامع الاستعلاء وتجاوز الحد المتعارف، قيل: إنها عتت على خُزَّانِهَا فلم تطعهم، ولم يطيقوها من شدة هبوبها، غضبت لغضب الله. وقيل: عتت على عاد فقهرتهم[٣٥]، فلم يستطيعوا ردها، فكانت تنزعهم من مكامنهم التي أتقنوها وحصنوها فتهلكهم.

«ولما وصفها بالعتو على الخلق والغلبة لهم بحيث كانت خارقة للعادة لم يأت مثلها قبل ولا بعد، دل على صَغَارِها بالنسبة إلى عظمته، وأنه هو الذي أوجدها لا الطبيعة ولا غيرها، بل إنما كانت بقدرته واختياره؛ قهرًا لمن طعن في ملكه وكذب رسله فيما أخبروا به من أمر الساعة التي هي موضع الحكمة وإظهار جميع العظمة، فقال مستأنفًا دلالة على ذلك: (سخرها)، أي: قهرها على أن سلطها، والتسخير: استعمال الشيء بالاقتدار»[٣٦]، أو هو «الغصب على عمل، واستعير لتكوين الريح الصرصر تكوينًا متجاوزا المتعارف في قوة جنسها، فكأنها مكرهة عليه»[٣٧]، «فصيّرها بحيث لا تمتنع عن المرور عليهم في الوجه الذي جعلها عليهم، وإطاعته في الوجه الذي أرسلها»[٣٨].

«ودل على أنه تسخير تعذيب لا رحمة وتأديب بأداة الاستعلاء، فقال: (عليهم) وكلفها ذلك وذللها له فلم يمكنها مع عتوها إلا أن كانت طوع أمره وصنيعة عظمته وقهره.

ولما كانت هذه السورة لتحقيق الأمور، وكشف المشكل وإيضاح الخفي، حقق فيها زمن عذابهم تحقيقًا لم يتقدم مثله، فذكر الأيام والليالي، وقدم الليالي؛ لأن المصائب فيها أفظع وأقبح وأشنع؛ لقلة المغيث والجهل بالمأخذ والخفاء في المقاصد والمنافذ، ولأن عددها مذكر في اللفظ، وتذكير اللفظ أدل على قوة المعنى؛ ولذلك جعل المميز جمع كثرة، ... ، ولا يمكن أن يظن بتقديمها أن ابتداء العذاب كان فيها؛ لأنه يلزم حينئذ أن يكون بعدد الأيام؛ فلذلك قال: (سبع ليال)، أي: لا تفتر فيها الريح لحظة؛ لأنه بولغ في شدتها مبالغة لم يكن مثلها قط ولا يكون بعدها أبدًا، (وثمانية أيام) كذلك حال كونها (حسومًا) جمع: حاسم»[٣٩]، أي: متتابعة لا تفتر ولا تنقطع، أو هي من حسمت الشيء: إذا قطعته وفصلته عن غيره، وقيل: الحسم: الاستئصال، ويقال للسيف: حسام؛ لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته، والمعنى: أنها حسمتهم، أي: قطعتهم وأذهبتهم. وقيل:

الحسوم: الشؤم، لأنها تحسم الخير عن أهلها. و(حسومًا) نصب على الحال أو على المصدر (تحسمهم حسومًا)، ويمكن أن يكون مفعولًا لأجله، أي: سخرها عليهم هذه المدة للاستئصال[٤٠].

هذا الإهلاك التام الحاسم تركهم في صورة أراد الحق سبحانه نقلها لكل إنسان دون تخصيص، فقال: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، «(فترى) خطاب لغير معين، أي: فيرى الرائي لو كان راء»[٤١]، وهنا خُرِّجَ الكلام على خلاف مقتضى الظاهر باستعمال صيغة المضارع الموضوعة للدلالة على الحاضر أو المستقبل للتعبير عن حدث وقع في الماضي؛ وذلك لنقل المشهد العجيب كأننا نراه الآن، والتعبير بالمضارع عن حدث وقع في الماضي «أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة، ويُتَخَيَّلُ في المقام سامع حاضر شاهد مهلكهم أو شاهدهم بعده»[٤٢]، والغرض منه: الترهيب والتخويف للمخاطب من أن يحيق به مصير هؤلاء المرعب إن هو سلك مسلكهم في التكذيب بالآخرة وبما جاء به رسل الله.

(فترى القوم) عاد الذين كانوا في غاية القدرة، (فيها)، أي: في تلك المدة من الأيام والليالي لم يتأخر أحد منهم عنها (صرعى)، أي: مجدلين على الأرض موتى معصورين، مُجْهِزَة على كل منهم من شدة ضغطها، بادِ عليهم الذل والصغار؛ حتى صاروا (كأنهم أعجاز)، أي: أصول (نخل) قد شاخت وهرمت، فهي في غاية العجز، وشبهوا بأعجاز نخل، أي: أصول النخل، وعجز النخلة: هو الساق التي تتصل بالأرض من النخلة وهو أغلظ النخلة وأشدها؛ لقوة بنيانهم وطول قاماتهم، ووجه التشبيه بها أن الذين يقطعون النخل إذا قطعوه للانتفاع بأعواده في إقامة البيوت للسقف والعضادات انتقوا منه أصوله؛ لأنها أغلظ وأملأ وتركوها على الأرض حتى تيبس وتزول رطوبتها ثم يجعلوها عمدًا وأساطين؛ فوجه التشبيه القوة والمتانة والطول.

ووصف (نخل) بأنها (خاوية)، أي: متآكلة الأجواف ساقطة، من خوى النجم إذا سقط للغروب، ومن خوى المنزل إذا خلا من قُطّانه؛ ليدل على ما صارت إليه أجسامهم من حال مزرية تشبه حال النخل الخاوية بعد قطعها وقطع رؤوسها وإلقائها على الأرض وقد تآكلت أجوافها، قالوا: كانت الريح الباردة الشديدة تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم، فالوصف بذلك لعظم أجسامهم وتقطيع الريح لهم وقطعها لرؤوسهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم. ووصف (نخل) بأنها (خاوية) باعتبار إطلاق اسم (النخل) على مكانه بتأويل الجنة أو الحديقة، ففيه لون بديعي هو (الاستخدام)[٤٣]، وهذا الوصف لتشويه المشبه به بتشويه مكانه، وأحسنه ما كان فيه مناسبة للغرض من التشبيه كما في الآية، فإن لهذا الوصف وقعًا في التنفير من حالتهم ليناسب الموعظة والتحذير من الوقوع في مثل أسبابها[٤٤]. «وقيل: كانت الريح تقطع رؤوسهم فتبقى

أجسادًا بلا رؤوس، فشبههم بأعجاز النخل لأنها دون أغصان: وقيل: كانوا حفروا حفرا يمتنعون بها من الريح، فهلكوا فيها؛ فشبههم بأعجاز النخل إذا كانت في حفرها»[٤٥]، وقيل: إن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية، أو أن الريح كانت تدخل في أجوافهم من الخيشوم وتخرج من أدبارهم؛ فصاروا كالنخل الخاوية[٤٦].

هذا المشهد المرعب الذي تصوره الآيات لمهلك ثمود وعاد بسبب تكذيبهم بـ(القارعة) تضافر في تصويره الإيقاع ومجموعة الألفاظ والأساليب والصور، فمع ما في صورة الإهلاك من رعب إلا أنها لا تمثل شيئًا مما يكتنز به لفظ (القارعة) المستخدم في القرآن للدلالة على يوم القيامة، وما يصوره من أهوال تقرع القلوب وتزلزلها، وتقرع الكون بالدمار والفناء، هذه القارعة أنكرتها عاد وثمود، فماذا أصابهم؟ أهلكوا بـ(الطاغية) و(بريح صرصر عاتية) وما أهلك به هؤلاء المكذبون من الصيحة والريح أخف كثيرًا من القارعة، لكنه من جنسها. واختيار التعبير بـ(الطاغية) بدل (الصيحة) ووصف الريح بـ(العاتية)، يتسق مع جو الرهبة الذي يظلل السورة، ويوحي بنزر يسير مما هو مدخر لهم يوم تحق (الحاقة)، ذلك أن في (الطاغية) معنى الطغيان، أي: تجاوز الحد، وكذا في (عاتية) معنى الشدة والقسوة، وفي كلا الكلمتين معنى القهر، وكذلك وصف الريح بـ (صرصر) يجعل من هبَّاتها المدمرة قذائف تنطلق عليهم فتهلك الحرث والنسل.

وخلال تفصيل ما أصاب قوم عاد يتناسق اللفظ مع الحالة المراد تصويرها تناسقًا بديعًا؛ فها هم أولاء المتجبرون الطاغون بعد أن حل بهم ما حل تراهم (صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)، فبعد أن ملأوا الكون ضجيجًا ومشوا فيه متكبرين وطغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، يصيرون إلى هذا المنظر الساكن الرهيب الذي يزيده صمته روعة وتأثيرًا. فاللفظ (صرعى) وحده يكاد يستقل برسم صورة كاملة.

وانظر إلى هذا الاتساق الإيقاعي والدلالي العجيب بين فواصل الآيات في هذا المشهد (القارعة – الطاغية – عاتية – خاوية) فالثلاثة الأولى بمثابة قَرْع قاصف في نهايات آياتها التي جاءت في إيقاع هادر يتناسب مع جو التكذيب والإهلاك والتدمير، حتى إذا ما جئنا إلى الآية الرابعة بدأ الإيقاع في الهدوء ليصل إلى قمة هدوئه مع الفاصلة (خاوية) المعلنة بانتهاء المشهد، ولمواءمة صورة السكون الرهيب التي صار إليها القوم بعد إهلاكهم.

ثم يختم الحق بهذا الاستفهام المفيد للنفي ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، أي: لا ترى أحدًا منهم باقيًا، مما يعني الاستئصال التام. وهذا الاستفهام «تفريع على مجموع قصتي ثمود وعاد، فهو

فذلكة[٤٧] لِمَا فصل من حال إهلاكهما، وذلك من قبيل الجمع بعد التفريق، فيكون في أول الآية جمع ثم تفريق ثم جمع»[٤٨].

وتكرار الفعل ﴿ترى﴾ ومجيئه بصيغة المضارع له دلالة عظيمة، فما أصابهم خليق بأن يرى ويتدبر، والمشهد كله حاضرٌ مُشخَصٌ مرئيٌّ.

وتنحو السورة الكريمة منحى بليغًا دقيقًا في تصويرها لنهاية ثمود وعاد، فلأن هلاك ثمود كان بالصيحة الطاغية فقد تحدثت عنه في آية واحدة بإيجاز يلائم سرعة هذه الصيحة ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، على حين طال الحديث عن نهاية عاد طولًا يتجانس مع امتداد عذابهم وطول مدته ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾.

كذلك كان لاختيار وسيلة الهلاك صلة وثيقة بأحوال المهْلَكين؛ فقد وصلت ثمود إلى مرحلة لا بأس بها من الرخاء والاستقرار الاجتماعي والتحضر، إلى حد أنهم أخضعوا بيئتهم لمتطلباتهم ومصالحهم، فشقوا الطرق وبنوا البيوت واقتحموا الجبال ﴿**وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ**﴾ [الحجر: ٨٢] وكان نبيهم صالح υ ينعى عليهم كفرهم ويستنكر طغيانهم: ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩)**﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٩]، وهذا جعلهم يعيشون في ظل الأماني الكاذبة؛ فكان هلاكهم السريع أبلغ في العبرة لمشركي قريش ولمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ حتى لا يغتر بالحياة الدنيا ومتاعها؛ فإنها لا تغني من عقاب الله شيئًا: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ [الحجر: ٨٣-٨٤]. وأما عاد فلم يبلغوا درجة التقدم الذي حققته ثمود؛ ولذا لم يكن هلاكهم خاطفًا مثلهم، وإن كان أسلوب تصويره يزخر بالروعة والجلال.

وأمام هذه النهاية الرهيبة تأتي هذه النقلة المفاجئة من الحديث عن هؤلاء القوم الصرعى إلى خطاب المستمع المشدوه من غرابة ما يسمع ليتواصل التأثير فيه بأقوى الحواس (العين)، فأصبح السامع ينظر ويتأمل مليًّا هذا المشهد الجنائزي الرهيب: مشهد هؤلاء الهالكين الذين لم يبق منهم أحد، ولم يمت واحد منهم حتف أنفه ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وتختم هذه اللوحة الرهيبة بتلك الصورة التشبيهية التي تعكس ضعفهم وعجزهم، ثم يأتي الاستفهام المحرك

للانتباه والحاث على الاتعاظ والمؤكد للفناء الشامل؛ لأن التبعيض الذي تفيده (من) أبلغ في الدلالة على فناء الكل: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾.

وينتقل المشهد إلى معاندين آخرين؛ فرعون ومن قبله من الأمم السابقة عليه والمؤتفكات (أهل قرى لوط)، عصوا؛ فكان عاقبتهم الإهلاك كعاد وثمود: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾.

﴿وَجاءَ فِرْعَوْنُ﴾ «أفرده بالذكر لغاية علوه واستكباره، ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ ومن تقدمه من الكفرة غير عاد وثمود، فهو من قبيل التعميم بعد التخصيص»[٤٩]، وهو لون من ألوان الإطناب.

و«قرأ أبو عمرو والكسائي (وَمَنْ قِبَلَهُ) بكسر القاف وفتح الباء، أي: ومن معه وتبعه من جنوده. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ اعتبارًا بقراءة عبد الله وأُبَيّ (ومن معه). وقرأ أبو موسى الأشعري (ومن تلقاءه). والباقون (قَبْلَهُ) بفتح القاف وسكون الباء، أي: ومن تقدمه من القرون الخالية والأمم الماضية»[٥٠].

﴿وَالْمُؤْتَفِكاتُ﴾ قرى أهل لوط، وسميت بذلك لأنها ائتفكت بهم: انقلبت، مشتقة من الإفك، وهو القلب، ومنه قيل للكذب: إفك، لأنه قلب للحقيقة، و«هذا من قبيل التخصيص بعد التعميم للتتميم؛ لأن قوم لوط أتوا بفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين. (بِالْخاطِئَةِ) الباء للملابسة والتعدية وهو الأظهر، أي: بالخطأ، أو بالغفلة، أو الأفعال ذات الخطأ العظيم التي من جملتها تكذيب البعث والقيامة، فالخاطئة على الأول مصدر كالعاقبة، وعلى الأخيرين صفة لمحذوف»[٥١].

وفي التعبير بـ(المؤتفكات) مجاز مرسل علاقته المحلية؛ حيث ذكر المحل وهو قرى قوم لوط وأراد أهلها؛ للدلالة على شدة العقوبة التي نالتهم وعمومها لهم، وكأنها لشدتها وعمومها تعدت إلى الجماد بسببهم؛ وذلك لشناعة جرمهم الذي لم يسبقهم إليه أحد من العالمين، و(المؤتفكات) وهي لفظة مفردة تشكل صورة بصرية كاملة، وهذا إيجاز معجز.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ قيل: هو موسى عليه السلام، وقيل: لوط لأنه أقرب، ولا مانع من إرادة الاثنين بلفظ المفرد، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقيل: رسول بمعنى رسالة.

وقال الماتريدي: «كان قوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ واقعًا على رسول كل فريق، كأنه قال: عصى كل أمة رسولها»[٥٢].

وفي هذا المنظر العابر نرى الصورة الحركية مجيء فرعون والسابقين أو من معه وقوم لوط، وما تشي به تلك الصورة من تفاخر وعجب وتكبر، وجاءوا بماذا؟ جاءوا بـ(الخاطئة) المعصية والشرك. ونلاحظ أنه عدل عن المصدر (الخطأ) إلى اسم الفاعل (الخاطئ) وزاد (التاء) فلم يقل: جاءوا بـ(الخطأ)؛ لأنه لو قال ذلك، لكان ما ارتكبوه من الشرك والمعصية لا يتعدى ضرره إلى غيرهم، لكن التعبير باسم الفاعل كشف أن ضرر ما جاءوا به من المعصية والشرك تعداهم إلى غيرهم، وجاءت التاء للمبالغة في إظهار بشاعة وفحش ما جاءوا به.

وهنا استعارة تمثيلية؛ حيث استعار مجيء فرعون والسابقين وقرية لوط بالأفعال الخاطئة لارتكابهم المعاصي والذنوب وإشراكهم بالله تعالى، وقد جسدت هذه الاستعارة الخطايا والذنوب وأظهرتها في صورة المحسوس؛ إبرازًا وتوضيحًا لها وإظهارًا لمدى شناعتها وبشاعتها؛ ليكون نفور المعتبرين منها أشد.

والتعبير بالـ(فاء) العاطفة المفيدة للترتيب والتعقيب بعدها (عصوا) مع حذف الجمل المفيدة لإرسال الرسل لإبلاغهم الرسالة قبل قوله: (فعصوا) لَدَلِيلٌ على مسارعة هؤلاء إلى ارتكاب الخطايا والشرك؛ فالحذف واستخدام الفاء وما يتمتع به الفعل من سرعة في النطق وجهارة إيقاعية كل ذلك دليل على أن هؤلاء الأقوام لم يكن عندهم أدنى استعداد للاستماع أو التجاوب مع دعوة الإيمان.

وفي الآية مجاز مرسل علاقته المسببية؛ حيث ذكر المسبب (فعل الخطيئة والمعصية) وأراد السبب وهو رغبتهم وإرادتهم فعل ذلك، وهذا يؤكد على ما تنطوي عليه نفوسهم من حب الاعوجاج عن طريق الحق، ومسارعتهم إلى ارتكاب المعاصي والخطايا.

وقال الحق: «﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل: رسولهم؛ للإشعار بأنهم لم يكتفوا بمعصية الرسول الذي هو بشر مثلهم، وإنما تجاوزوا ذلك إلى الاستخفاف بما جاءهم به من عند ربهم وخالقهم وموجدهم»[٥٣] ورازقهم والمنعم والمتفضل عليهم، وقال: ﴿رسول ربهم﴾ ولم يقل: (رسول الله)؛ ليذكرهم بما لله عليهم من منن وفضل؛ لتلين قلوبهم ويستمعوا للحق؛ لأن الربوبية تحمل في طياتها معنى الإفضال والإنعام والرعاية والحياطة والحفظ... إلخ.

وتأتي العقوبة – لما أصروا على غيهم – ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً﴾: عالية زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم، ومنه الربا. وقيل: شديدة[٥٤]، وعبر بالفاء المفيدة للترتيب والتعقيب، وعبر بالأخذ دون الإهلاك أو المعاقبة، وقيد الفعل بالمفعول المطلق لإفادة التوكيد، ووصف المفعول المطلق (أخذة) بالزيادة؛ «للإشعار بسرعة الإهلاك وشدته»[٥٥]، وأنه هلاك استئصال لم يبق منهم باقية.

والأخذة (الرابية) التي أخذ بها قوم فرعون تتناغم مع (الطاغية) التي أهلك بها ثمود، والريح العاتية التي قضت على عاد.. وهكذا تتعاون الألفاظ بجرسها وحده في تصوير الهول والرعب دون تفصيل ولا تطويل.

ويتحول المشهد إلى المنظر الأخير إهلاك قوم نوح، وهو لا يتجاوز لقطة عابرة تصور ارتفاع الماء وتجاوزه الحد، وحمل المؤمنين في السفينة: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾: ارتفع الماء وعلا، وهنا استعارة من باب استعارة المعقول للمحسوس؛ فالمستعار الطغيان وهو الاستعلاء المنكر، والمستعار منه كل مستعل متكبر متجبر مضر، والمستعار له الماء في ارتفاعه، والطغيان معقول والماء في ارتفاعه محسوس، ويعبر المنظر عن فيضان الماء، ولفظ (طغى) يرسم صورة شاخصة لعنف هذه المياه التي أغرقت المكذبين من قوم نوح. و(حملناكم)، أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ويوحي هذا اللفظ بالحنو على المؤمنين والرأفة بهم. و(الجارية): صفة للسفن، والمحمول في الجارية نوح عليه السلام وأولاده، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك. (لنجعلها لكم تذكرة): السفينة أو الفعلة، موعظة لكم. (وتعيها أذن واعية): تسمعها وتحفظها أذن حافظة لما جاء من عند الله، يقال لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيته، ولما حفظته في نفسك: وعيته. وفي قوله: (تعيها أذن) مجاز مرسل علاقته الجزئية، ذكر الأذن وأراد صاحبها؛ لأن الذي يعي هو الإنسان لا الأذن فقط، لكن لما كانت الأذن هي آلة السمع التي تنقل الكلام إلى الإنسان، والإنسان لا يعي إلا إذا عرف الكلام أولاً، فبذلك تكون الأذن هي الأساس في الوعي، فلذلك ذكرها. وجاءت (أذن) نكرة؛ لإفادة العموم، أي: أن هذه العبر والعظات لكل من يريد سماعها ووعيها والاعتبار بها.

واعتمدت السورة في المنظرين الأخيرين: منظر تكذيب فرعون ومن قبله وقرية لوط وهلاكهم: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠)﴾ ومنظر إهلاك قوم نوح ونجاة صالحيهم: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ على أسلوب الانتقاء والتركيز؛ فـ(المؤتفكات) كلمة واحدة تشع عديدًا من الظلال وتوحي إيحاء قويًّا مؤثرًا بعنف مصير المكذبين رسلهم؛ وهي لم تتحدث مباشرة عن قوم لوط، وإنما صورت مواطنهم التي ائتفكت بهم وانقلبت عليهم ودمرتهم: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وفي حديثه عن قوم نوح نرى التركيز على موقف خاص من مواقف قصتهم هو موقف نجاة المصدقين ورحمة الله بهم، دون الوقوف عند هلاك المكذبين بأكثر من تلك

الإشارة المركزة إلى طغيان الماء، ليعود الحديث إلى نعمة النجاة التي ينسحب فضلها على العالمين؛ لأنهم أحفاد الناجين مع نوح عليه السلام، وتختار الآية لتصوير تلك النعمة كلمة (حمل) بما تشعه من معاني الأمومة والحنو والرأفة.

ولاحظ العدول والالتفات الواقع في مناظر المكذبين المعاقبين؛ فمع عقاب ثمود وعاد حذف الفاعل، ومع عقاب فرعون وقوم لوط ذُكِرَ الفاعل لكنه جاء بصيغة ضمير الغيبة المفرد، وهنا عند حديثه عن قوم نوح جاء الفاعل بصيغة ضمير المتكلم الجمع، وفي كل المناظر الفاعل هو الله؛ فلم وقع هذا العدول أو الالتفات؟

عقاب ثمود كان بالصيحة وعقاب عاد كان بالريح، وهذان الأمران لا يستطيع مخلوق أن يفعلهما، وعقول المخلوقين لا تتصور أحدًا على وجه الأرض مهما بلغت قوته يقوم بهما، أن يطلق صيحة فيهلك بها قومًا من الأقوام، أو يرسل ريحًا فتهلك آخرين، فضلاً عن أن العقول لا تتصور أن أحدًا يستطيع التحكم في الريح أو توجيهها، ومع استحالة هذه الأمور على المخلوقين فما أيسرها على الخالق؛ ولذلك جاء حذف الفاعل لفظ الجلالة في التعبير، وكأن الحق سبحانه يريد أن يقول لنا: هذه الأمور المستحيلة عليكم، أيها المخلوقون، هي أيسر عليّ بحيث لا تحتاج مني إلى القيام بفعلها، بل مجرد الإرادة تكفي؛ ولذلك حذف الفاعل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طلاقة القدرة.

وكذا في عقاب فرعون المتأله وقومه وقوم لوط المتكبرين؛ بالإغراق للأول وقومه، والقلب للآخرين، وهي عقوبات لا يستطيعها أحدٌ مع مجموعة من الناس دفعة واحدة، يمكنه فعلها مع أفراد، وليس على الوجه الذي تمت به، فلما كان من المتصور بعض التصور أن مخلوقًا ما يمكنه إيقاع الإغراق أو القلب عدل التعبير القرآني عن حذف الفاعل إلى ذكره؛ فذكر الفاعل هنا نفيٌ وضحد لما قد يتسرب إلى تصور مخلوق من أن أحدًا يستطيع إيقاع الإغراق والقلب على النحو المعجز الذي تم به، فذكر الفاعل هنا توجيه للانتباه إلى أن هنا فاعلاً للعقوبة التي حلت بفرعون ومن معه وقوم لوط، وأنه الله وحده، وذكر بصيغة الغائب للدلالة على يسر إيقاع هذا العقاب وهوانه عليه، وهذا تأكيد بعد تأكيد طلاقة القدرة الإلهية.

وعندما انتقل التعبير القرآني إلى الحديث عن قوم نوح لم يكن الغرض إبراز العقوبة التي حلت بقومه المكذبين المعاندين بقدر ما ركزت على رحمة الله بعباده الطائعين بأنه أنجاهم من الغرق في السفينة؛ فالمقام مقام إنعام وتفضل وامتنان من الله على هؤلاء وعلى ذراريهم الذين في أصلابهم، ومقام الإنعام يقتضي حضور المنعم المتفضل؛ ولذلك التفت من صيغة الغياب (فأخذهم) إلى صيغة

ضمير التكلم المفيد للجمع (إنا ... حملناكم ... لنجعلها) لإفادة التعظيم والتفخيم للمنعم سبحانه، وقد غلب هذا الاستعمال في مواطن الإنعام والتفضل من الله في القرآن.

وقد مهد هذا الالتفات لتلك النقلة الواسعة من الماضي البعيد إلى الحاضر، نقلة توحي بأن المستمعين لهذه القصة هم الأحفاد الغاوون لأولئك المكذبين الضالين من قوم نوح، وبأن على هؤلاء الأحفاد الاتعاظ بما أصاب سابقيهم، وهذا الاتعاظ المفهوم من السياق هو ما صرحت به الآيات ونصت عليه، مستمرة في خطاب السامعين ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ واصفة الأذن بهذه الصفة؛ تنبيهًا على سمو الوظيفة التي ينبغي أن تقوم بها لصاحبها؛ فالوعي هنا تشف حروفه عن عديد من المعاني الحسية والمعنوية التي تلتقي حول الحفظ والتدبر، كما يوحي بسمو الوظيفة التي ينبغي أن تقوم بها الأذن والتي أهملها هؤلاء المكذبون.

المشهد الثاني– مشهد القيامة المروع:

لما تحدث القرآن عن (الحاقة) وفخمها وهول من شأنها، وخوف من أمرها، وبَيَّنَ سبب ما يقع فيها من أهوال ومصائب لبعض العباد، وهو: التكذيب بها وبحصولها، وأن هذا التكذيب يستتبعه العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وساق النماذج على ذلك: ما حاق بالأمم السابقة من عقوبات وهلاك مع ما ينتظرهم – حينما تقع الحاقة/ القارعة – من عقوبات أخرى. وساق لهم هذه النماذج الواقعية دليلاً على تحقق وقوع أهوال الحاقة/ القارعة، فالذي قَدَرَ على إيقاع العقوبات الشديدة الشنيعة في أول مرة قادر على أن يعيد الكَرَّة مرة أخرى، لما تحدث القرآن عن هذا كله، ونبه على أن ما ساقه من عقوبات الأمم السابقة إنما ساقه للاعتبار والاتعاظ وإيقاظ وعي السامعين وتنبيههم إلى المخاطر التي تتهددهم من (الحاقة)، فكأن السامعين سألوا: متى تكون الحاقة أو القارعة؟ وما الذي ينتظرنا فيها من أهوال؟ فأخبروا عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)**﴾ [الحاقة: ١٣-١٨]

ونلاحظ هنا، أن الحق سبحانه لم يخبر بوقت الحاقة/ القارعة تحديدًا، بل ربط وقت وقوعها بوقوع أهوالها ومصائبها، فأخبر بماهيتها؛ تماشيًا مع جو السورة الذي جلله الترهيب والتخويف والرعب، ثم إن وقتها مما استأثر الله تعالى بعلمه: ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا**

﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ولأن الغرض من السورة هو ترهيب المشركين وتخويفهم من عدم الإيمان بها وبما يترتب عليها.

وتم ربط الماضي بالحاضر –كما في المشهد السابق– ومن ثم ربط ذلك الحاضر بالمستقبل؛ فإنه سبحانه لما ذكر القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها، ودل على قدرته عليها وعلى حكمته بقصص من ذكر على الوجه الذي مر، إلى أن ختم بالذين كانت قصتهم أشبه تلك القصص بالقيامة (قوم نوح) من حيث إن أمر الله فيها عم أهل الأرض وفي زمن يسير، ودعا إلى وعي «هذه الفِعْلات العظيمة من إنجاء المؤمنين بحيث لا يهلك منهم بذلك العذاب أحد، وإهلاك الكافرين بحيث لا يشذ منهم أحد، وكذا السفينة التي حملنا فيها نوحًا عليه السلام ومن معه بإبقائها آية من آياته وأعجوبة من بدائع بيناته وغريبة في الدهر من أعجوباته»[٥٦].

لما ذكر سبحانه كل ذلك شرع عن طريق (الفاء) الاستئنافية في «تفريع ما بعدها على التهويل الذي صدرت به السورة من قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ (١) مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ (٣)﴾ فعلم أنه تهويل لأمر العذاب الذي هُدِّدَ به المشركون من أمثال ما نال أمثالهم في الدنيا، ومن عذاب الآخرة الذي ينتظرهم، فلما أتم تهديدهم بعذاب الدنيا فرَّع عليه إنذارَهم بعذاب الآخرة الذي يحل عند القارعة التي كذبوا بها كما كذبت بها ثمود وعاد، فحصل من هذا بيان للقارعة بأنها ساعة البعث وهي الواقعة»[٥٧]، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.

وهذا المنظر – منظر النفخ – «شروع في بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها. والمراد بالنفخة الواحدة النفخة الأولى التي عندها خراب العالم»[٥٨].

و(إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان، ويكون الكلام بمعنى: ففي وقت (نُفِخَ)، أي: نفخ الملك الموكل بالنفخ (في الصور) أي: القرن أو البوق الذي ينفخ فيه (نفخة واحدة) (وحملت الأرض والجبال)، أي: رفعت الأرض المنبسطة والجبال الشامخة من أماكنها (فدكتا دكة واحدة)، أي: دق بعضها ببعض دفعة واحدة؛ حتى صارت كثيبًا مهيلًا، فلما وقع كل ذلك (النفخ ودك الأرض والجبال) مباشرة في هذا الوقت تقوم القيامة (فيومئذٍ وقعت الواقعة).

وفي (نُفِخَ) إيجاز بالحذف؛ حيث حذف الفاعل؛ لأنه معلوم، وهو الملك إسرافيل، أو لأنه لم يتعلق غرض به؛ لأن الغرض متعلق بالإخبار بوقوع النفخ قبيل قيام القيامة وأنه نفخة واحدة، وفي هذا دلالة على هوان الأمر على الله ويسره، وذَكَّرَ (نُفِخَ) مع أن نائب الفاعل مؤنث؛ للدلالة على شدة النفخة، وقدم الجار والمجرور (في الصور) على (نفخة) نائب الفاعل؛ لإفادة القصر، أي: لا ينفخ في شيء آخر غير الصور، ووصف اسم المرة (نفخة) بـ(واحدة) مع أنه يدل على الوحدة؛

«للتأكيد على أنها نفخة واحدة وليست أكثر، وللتنبيه على أن هذه النفخة – مع أنها واحدة – تتأثر بها السماوات والأرض والجبال، وهذا دليل على وحدانية الله – تعالى– وقدرته»[٥٩]، بل دليل على عظيم قدرته وصغار الأشياء عنده.

فحصل من ذكر نفخة واحدة تأكيد معنى النفخ وتأكيد معنى الوحدة، وليس المراد بوصفها بـ(واحدة) أنها غير متبعة بثانية، فقد جاء في آيات أخرى أنهما نفختان، بل المراد أنها غير محتاج حصول المراد منها إلى تكررها كناية عن سرعة وقوع الواقعة، أي: يوم الواقعة[٦٠].

ومع منظر النفخ يتداخل منظر حمل الأرض والجبال ودكهما بشدة منقطعة النظير: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ رفعت من أماكنها، (فدكتا): فتتا وكسرتا. ولم يقل فدككن؛ لأنه جعل الأرض والجبال كلها كالجملة الواحدة، أي: مفردًا، وهذا يعني أن الجبال بالقياس إلى قدرته سبحانه لا تمثل متعددًا يحتاج في معاناته إلى توزيع القوة، بل معالجة الجبال مع الأرض على التعدد الحاصل فيها كان دفعة واحدة وفي وقت واحد، وفي هذا تأكيد مرة أخرى على عظيم القدرة الإلهية.

وذِكْرُ (الجبال) بعد (الأرض) مع أن الجبال مثبتة على الأرض من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وهو لون من الإطناب، وفيه تنبيه على ما للجبال من خصوصية، ولو لم يكن لها تلك الخصوصية لما ذكرها، خصوصًا وأن على وجه الأرض أشياء كثيرة، كالرمال والأشجار والأنهار والبحار، ...، ومع هذا لم يذكرها، فلم خص الجبال بالذكر؟ خص الجبال؛ لأنك إذا نظرت إليها وجدتها خلقًا شامخًا راسيًا صلدًا، فهي رمز للصمود والثبات والتماسك؛ فإذا ما تفتت وتكسرت، وصارت يوم القيامة – كما قال الله –: ﴿**هَبَاءً مُنْبَثًّا**﴾ [الواقعة: ٦] ﴿**كَثِيبًا مَهِيلًا**﴾ [المزمل: ١٤] ﴿سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] ﴿**كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ [القارعة: ٥]، إذا صارت الجبال إلى هذا النحو فغيرها أكثر صيرورة وتحولاً؛ فإذا كانت الجبال الشامخات الراسيات تتحول إلى هذا بهذا اليسر والهوان على القدرة الإلهية، فغيرها أيسر وأهون، وفي هذا استمرار في التأكيد على عظيم قدرة الله.

والتعبير بالدك الذي هو الدق الشديد يدل على أن التكسير والتفتيت كان قويًّا وعامًّا وشاملًا. «والدك والدق أخوان، والدك أبلغ، قال أبو حيان: والدك فيه تفرق الأجزاء، والدق فيه اختلاط الأجزاء»[٦١]، ووصف الدكة بأنها (واحدة) فيه دلالة على السرعة؛ مما يؤكد لنا كذلك طلاقة القدرة الإلهية.

وعندما ينفخ إسرافيل في الصور بأمر الله نفخة واحدة، وعندما تزال الأرض والجبال عن أماكنهما، وتتفتت أجزاؤهما تفتتًا شديدًا، ﴿فيومئذ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ أي: ففي هذا الوقت تقع الواقعة

التي لا مرد لوقوعها، وفي استخدام (الفاء) دليل على ترتب قيام القيامة على النفخ وتفتت الأرض بما عليها وتكسر الخبار وتفتتها، كما أن فيه دلالة على سرعة الأحداث وتلاحقها، النفخ وحمل الأرض والجبال وتفتيتهما يعقب ذلك مباشرة قيام الساعة، وهذا التلاحق دليل على قدرة الفاعل؛ إذ هو قادر على إحداث كل هذه الأمور العظيمة في أوقات تكاد تكون متداخلة، (فيومئذ) أي: إذا نفخ ودكتا، وهي بدل من (إذا) كرر لطول الفصل، وأفاد تهويلًا لقيام الساعة وتعظيمًا.

ثم انظر ما في الآيات الثلاث من إيقاع هادر صاخب يتناسب مع الجو الذي تعبر عنه: النفخ وصوته القاصف، والتكسر والتفتت للأرض والجبال وما ينتج عن ذلك من أصوات كالفرقعات، ووقوع القيامة، وقد جسد هذا الإيقاع العديد من الآليات اللغوية، أبرزها: الفاصلة (واحدة – واحدة – الواقعة) التي تمثل إيقاعًا قاصفًا تزداد حدته مع الوقف، قبل استئناف الإيقاع مرة أخرى، والتكرار بين (نفخ ونفخة) و(دكَّ ودكة) و(واحدة وواحدة) وما في هذا التكرار من إيقاع بارز يدل على قوة الفعل وشدته، وفيه تنبيه للسامع ولفت له إلى النظر والتدبر في العنصر المكرر، وكذلك الجناس بين (وقعت والواقعة) وما له من أثر توقيعي إمتاعي، وما فيه من دلالة على الحسم والصرامة في شأن وقوع الواقعة، فوقوعها متحقق يقينًا، بالإضافة إلى التناغم الواقع بين الأصوات اللغوية، كل هذا أدى إلى إيقاع في غاية التلاؤم مع دلالات الآيات، ومع الجو الخاص الذي تعبر عنه هذه الآيات، كما جاء منسجمًا مع الجو العام للسورة.

والواقعة من أسماء يوم القيامة؛ كالحاقة، والقارعة، ولاحظ التساوق بين الأسماء الثلاثة: الحاقة، القارعة، الواقعة.. من حيث الجرس الصوتي، ولاحظ أن كل اسم جاء في مكانه الحقيق به: فالحاقة جاءت في أول السورة لتشير أن القيامة يوم إحقاق الحقوق، وهو يومٌ حقٌّ وقوعه؛ حتى لا يماري فيه ممار منذ البداية، واسم (القارعة) جاء قبيل إخبار الله تعالى بما حل بالمكذبين من ثمود وعاد من الهلاك، والهلاك بما فيه من معنى القرع يناسبه اسم (القارعة)، وهنا القيامة تم حصولها، فالمناسب ذكر اسم (الواقعة).

ثم يلقانا منظر انشقاق السماء والملائكة واقفين على أطرافها وحملة العرش فوقهم: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ (١٦) وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ (١٧)﴾. (وانشقت السماء)، أي: تصدعت وتفطرت، قيل: تنشق لنزول ما فيها من الملائكة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنزلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، أي: ضعيفة، وكلام واه: ضعيف، وقيل: متخرقة. (والملك) أي: الملائكة، اسم للجنس. (على أرجائها): على أطرافها حين تنشق؛ لأن السماء مكانهم، ولعله على أطرافها مما لم

ينشق منها. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ قال ابن عباس: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، وقال ابن زيد: هم ثمانية أملاك، وعن الحسن: الله أعلم كم هم، ثمانية أم ثمانية آلاف(٦٢).

فالسماء ذلك البنيان المتماسك القوي تشقق وأصبح واهيًا ضعيفًا، والملائكة موزعون في كل أطرافها المتشققة، ومن فوقهم حملة العرش يحملون عرش الرحمن، تلك الصورة البصرية الهائلة التي يحكيها القرآن اعتمدت على أسلوب التقديم والتأخير، فقدم (يَوْمَئِذٍ) على (واهية)، وقدم (عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ) على الفاعل (ثَمَانِيَةٌ)؛ للتنبيه على أهمية المقدم، وللحفاظ على الفاصلة القرآنية ونغمة نهايات الآيات، ولأن المهم هنا إبراز العرش المحمول والفوقية المشعرة بعظمة القدرة الإلهية.

إذا وقعت كل هذه الأمور ساعتها يقع العرض على الله للحساب: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾، وهنا ترك الفاء التي صدر بها الكلام عند الحديث عن وقوع القيامة (فيومئذ وقعت الواقعة) للدلالة على ترتيب وقوع القيامة وقيامها على النفخ ودك الأرض والجبال وأنها تأتي بعقبهما، وترك الفاء هنا دل على زيادة وتيرة الأحداث، فالعرض على الله يكاد يتداخل مع ما قبله من أحداث، فالفاء وإن كانت تفيد الترتيب والتعقيب إلا أنها تشعر بوجود فاصل زمني، حتى هذا الفاصل الزمني القصير لم يعد له هنا وجود.

«وتكرير يومئذ أربع مرات؛ لتهويل ذلك اليوم الذي مبدؤه النفخ في الصور، ثم يعقبه ما بعده مما ذكر في الجمل بعده، فقد جرى ذكر ذلك اليوم خمس مرات؛ لأن (فيومئذ وقعت الواقعة) تكرير لـ(إذا) من قوله: (فإذا نفخ في الصور)؛ إذ تقدير المضاف إليه في يومئذ هو مدلول جملة (فإذا نفخ في الصور)، فقد ذكر زمان النفخ أولاً، وتكرر ذكره بعد ذلك أربع مرات»(٦٣)

وتأمل العدول عن صيغة الماضي في (نفخ – حملت – دكتا – وقعت – انشقت) إلى صيغة المضارع (يحمل – تعرضون)، وذلك لتقرير أن الأحداث المرتبطة بصيغة الماضي متحققة الوقوع؛ حتى لا يرتاب مرتاب في صدق وقوع هذه الأحداث، أما التعبير بصيغة المضارع فلنقل المشهد أمام السامع، وهذا يلفت النظر إلى أن مثل هذا المشهد مما ينبغي تأمله والنظر إليه بعين البصيرة؛ فمشهد حمل العرش هنا يدل على عظمة هذا العرش وعظمة خالقه وعلوه سبحانه، ومشهد العرض يشي بالمهابة والرهبة، فاستحضار هذين المشهدين مدعاة للتفكر في المآل والمصير.

وفي (تعرضون) وقع التفات إلى الخطاب عن الغيبة في قوله: (ويحمل عرش ربك فوقهم) فالحديث عن الناس هنا بضمير الغياب، وهنا الغياب يناسب الموقف فهو لا يتطلب الحضور، ثم

إنه لما علاهم العرش فكأنهم غيّبوا تحته، لكنه عدل إلى الخطاب في (تعرضون لا تخفي منكم)؛ لأن العرض يقتضي حضور الشيء المعروض، والغيبة بخلاف ذلك؛ فلذا التفت القول الكريم إلى الخطاب، كما أن الخطاب فيه تنبيه للمخاطب – هنا – أنه المقصود بالعرض لا تخفى منه خافية أقل شيء؛ وهذا مدعاة أن يحذر هذا المخاطب ويعد العدة ويتأهب ويستعد لهذا اليوم الذي يقع فيه العرض.

والخطاب في قوله: تعرضون لجميع الناس بقرينة المقام، والعرض: أصله إمرار الأشياء على من يريد التأمل منها، مثل: عرض السلعة على المشتري، وعرض الجيش على أميره، وأُطْلِقَ العرض هنا كناية عن لازمه، وهو المحاسبة، مع جواز إرادة المعنى الصريح(٦٤). تعرضون في هذا اليوم (لا تخفى منكم خافية)؛ لأنه سبحانه مطلع على كل شيء، فخافية على هذا، بمعنى: خفية كانوا يخفونها من أعمالهم. وقيل: لا تستتر منكم عورة.

وتقديم الظرف (يومئذ) على الفعل (تعرضون) للتنبيه على أن العرض لا يكون إلا في ذلك اليوم، وهو: يوم القيامة، وحذف فاعل (تعرضون)؛ للعلم به، ولأنه لم يتعلق به غرض، إنما الغرض هو إبراز عملية العرض، وأن الناس أجمعين هم المعروضون، وقدم شبه الجملة (منكم) على (خافية) للتخصيص، أي: لا تخفى منكم أنتم خافية لا غيركم، ولاحظ استخدام القول الحكيم للخطاب فلم يقل: من أحد؛ لأن في الخطاب تنبيه للمخاطب لأهمية الأمر، وبين (تخفى) و(خافية) تكرار يعطي جرسًا لطيفًا، ويؤكد المعنى المراد، وهو: ظهور كل شيء في الإنسان وانكشافه يوم القيامة مهما كان، وفي هذا دلالة على علم الله المحيط، وقدرته المطلقة، وفي هذا تنبيه للإنسان وتحذير له بعدم الاستهانة والغفلة عن مراقبة الله في كل أمره.

المشهد الثالث– غبطة الناجي وجزاؤه:

«لما بلغ الحق النهاية في تحذير العباد من يوم التناد، وكان لهم حالتان: خاصة وعامة، فالعامة العرض، والخاصة التقسيم إلى محسن ومسيء، زاده عظمًا بقوله: (يومئذ) أي: إذا كان ما تقدم. ولما كان المهول نفس العرض، بنى فعله للمفعول ولأنه كلام القادرين، فقال: (تعرضون) أي: على الله سبحانه وتعالى للحساب كما يعرض السلطان الجند لينظر في أمرهم ليختار منهم المصلح للإكرام والتقريب والإثابة، والمفسد للإبعاد والتعذيب والإصابة، عبر عن الحساب بالعرض الذي هو جزؤه، فالمحسن لا يكون له غير ذلك، والمسيء يناقش (لا تخفى منكم)، أي: في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه (خافية)ن أي: لا يقع أصلًا على حال من الأحوال شيء من خفاء لشيء كان من حقه الخفاء في الدنيا لا من الأعمال ولا من الأنفس وإن كان في غاية الدقة والغموض؛ لأن ذلك يوم الظهور التام من القبور ومن الصدور، وغير ذلك من الأمور، ليكون ذلك أجمل لسعادة

من سعد، وأقبح لشقاوة من شقي فأبعد، قال أبو موسى τ: هي ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعندها تتطاير الصحف فأخذ بيمينه وأخذ بشماله»[٦٥].

ولاحظ كيف اختزل موقف الحساب كله في كلمة واحدة (تعرضون)؛ فالعرض وإن كان جزءًا من يوم الحساب فإنه يقتضي وقائع الحساب، وكل واقعة تمثل لونًا من العرض، وهذا أيضًا إيجاز معجز؛ حيث طوى كثيرًا من الأحداث، وانتقل مباشرة إلى تفصيل الجزاء، باستخدام (الفاء الاستئنافية وأما التفصيلية): (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ)، وبدأ بالفريق الفائز: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٍ (٢٣) كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤]

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ) (مَنْ) اسم موصول مشترك للعاقل، يصلح للمفرد والجمع، والمذكر والمؤنث، وهذا يدل على أن الأحوال التي تمثلها الصلة تعم الجميع، يعني: أي واحد (أوتي) أعطي فسيحصل له ما هو آتٍ في الآيات، وبني الفعل للمجهول بحذف الفاعل؛ لأن الغرض هو بيان وقوع الإعطاء في اليمين مباشرة، فلا غرض يتعلق بالْمُعْطِي، و«لأن دلالة السعادة الوقوع في اليمين لا من معط معين»[٦٦]، ولأن إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة، فالحذف عجل المسرة.

ومن يعطى كتابه بيمينه ينفجر بالصياح، ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾؛ فـ(هاؤم): اسم فعل بمعنى: تعالوا. وعبر بـ(هاؤم) دون تعالوا؛ لأنها كلمة (هاؤم) وضعت لإجابة الداعي عند النشاط والفرح، فيصور اللفظ نشوة الظفر بتحقيق أمل كبير، وما يكمله الخيال من تمثل حركة هذا الفائز، وقفزه عاليًا فرحًا وبهجة، فيتبدى من خلال الكلام مدى التباهي والتفاخر من قبل هذا الفائز لما آل إليه مصيره؛ ولذا فهو يدعو الناس إلى قراءة كتابه والاطلاع عليه، فليس هناك ما يخجل منه. و(اقرؤوا) أمر يفيد الحث والحض، و(كتابيه) أي: سجل أعمالي، وعبر بـ(الكتاب) لأنه أقوى وسيلة لتقييد المعلومات والأدلة، فلا يستطيع أحد أن ينكر المكتوب، لكنه يستطيع إنكار ما عداه؛ ولذلك تكرر ذكر الكتاب في القرآن بمعنى سجل أعمال الإنسان التي يحاسب عليها يوم الجزاء، كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ**﴾ [الآية: ١٣]. وقوله في سورة الانشقاق: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ [الآية: ٧-٨].

والأصل أن يقال: كتابيَ، فجاءت الهاء للوقف، ولتبين فتحة الياء، وكذلك في (حسابيه، ماليه، وسلطانيه)، وجيء بهاء السكت للحفاظ على الفاصلة القرآنية بين هذه الآية وما تقدمها وما تأخر عنها، وفي المحافظة على وحدة الفاصلة انسجام صوتي له أثره الجمالي والدلالي، والأحسن الوقف على الآخر في القراءة؛ ليوافق اللغة في إلحاق الهاء في السكت ويوافق الخط.

لكن لماذا وصل هذا الإنسان إلى هذا الجزاء الحسن؟ لأنه تيقن وقوع الحساب (إنني ظننت أني ملاقٍ حسابيه) (إني ... أني) توكيد بعد توكيد، وهذا يدل على ثقة هذا الإنسان ويقينه المطلق في وقوع الحساب، و(ظننت): أيقنت وعلمت، وكل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك، وقد أحسن المؤمن الظن بربه فأحسن العمل، وأساء المنافق الظن بربه فأساء العمل.

«ويجوز أن يكون الظن في الدنيا، عبر به عن اليقين؛ إشارة إلى أنه يكفي العاقلَ في الخوف الحامل له على العمل ظنُ الخطر، وفيه إشعار بهضم النفس؛ لأن الإنسان لا ينفك عن خطرات من الشبه تعرض له وتهجم عليه، وإيذان بأن مثل ذلك لا يقدح في الجزم بالاعتقاد، وتنبيه على أنه يكفي في إيجاب العمل الظن، فيكون حينئذ تعليلًا لإعطاء الكتاب باليمين، وفيه تبكيت للكفار ونداء عليهم بأنهم لم يصلوا في هذا الأمر المحقق إلى مرتبة الظن، فكيف بالمحقق من العلم! فأهملوا العمل له فخالفوا»[٦٧]. و(أني ملاق حسابيه) أي: في الآخرة، ولم أنكر البعث؛ فسبب نجاته خوفه من يوم الحساب؛ ولذلك استعد للآخرة، فكانت النتيجة (فهو في عيشة راضية)، (الفاء) للتفريع على ما تقدم من إيتائه كتابه بيمينه، وما كان لذلك من أثر المسرة والكرامة في المحشر، فتكون الفاء لتفريع ذكر هذه الجملة على ذكر ما قبلها، ولك أن تجعل جملة (فهو في عيشة راضية) بدل اشتمال من جملة (فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه) فإن ذلك القول اشتمل على أن قائله في نعيم، وإعادة (الفاء) مع الجملة من إعادة العامل في المبدل منه مع البدل للتأكيد[٦٨]، و(هو) التفات إلى الغيبة عن التكلم؛ لأن الناجي في الموقف الأول لم يزل في موقف العرض فناسبه الحضور، والمقام مقام فخر واختيال، وهذا الموقف وذلك المقام لا يتحققان مع الغيبة، بل يناسبهما ضمير التكلم؛ إذ كيف يعرض الغائب وكيف نرى منه تفاخرًا واختيالًا، لكن لما غُيِّبَ في النعيم تم العدول إلى ضمير الغيبة، وفي هذا العدول إشارة إلى حياطة النعيم للمُنَعَّم وشموله له، وفي هذا تفخيم وتعظيم لهذا النعيم، ويؤكد هذا (في) المفيدة للظرفية، فالمنعَّم في داخل النعيم يحيط به من جميع جهاته ويشمله كله.

و(عيشة راضية) مجاز عقلي من إسناد المفعول للعامل، فـ(راضية) اسم فاعل بمعنى مفعول، فالعيشة لا تَرْضَى ولكن تُرْضَى، فهنا جعل العيشة عاقلًا على سبيل التشخيص؛ للدلالة على رضا

صاحبها على الوجه الأبلغ، أي: ثابت له الرضا ودائم لها، أي: للعيشة التي يجللها الرضا؛ لأنها في غاية الحسن والكمال، والعرب لا تعبر عن أكثر السعادات بأكثر من العيشة الراضية، بمعنى: أن أهلها راضون بها، والمعتبر في كمال اللذة الرِّضَا[٦٩]، ويمكن أن تكون الدلالة هي الإشارة إلى عظيم منزلة هذا الناجي ورفعته، حتى أنه ليس هو الراضي وحده، بل كل ما حوله راضٍ به حتى ما لا يعقل، فالأشياء تحبه لحب الله له.

ولما شوَّق سبحانه إلى حال صاحب هذه العيشة، وكانت أمرًا إجماليًّا، فصلها وبينها بالإبدال منها زيادة في التشويق فقال: (في جنة) أي: بساتين جامعة لجميع ما يراد منها، ولما كان شرف المسكن العلو قال: (عالية)، أي: في المكان والمكانة والأبنية والدرجات والأشجار وكل اعتبار، أو هي عظيمة في النفوس، وحتى لو كان المقصود العلو الحسي فهو من محاسن الجنات؛ لأن صاحبها يشرف على جهات من متسع النظر، ولأنه يبدو له كثير من محاسن جنته حين ينظر إليها من أعلاها أو وسطها مما لا يلوح لنظره لو كانت جنته في أرض منبسطة، وذلك من زيادة البهجة والمسرة؛ لأن جمال المناظر من مسرات النفس ومن النعم[٧٠].

(قطوفها دانية): قريبة التناول، و(القطوف) جمع قِطف بكسر القاف، وهو ما يقطف من الثمار، وهو جمع كثرة، وكل هذا تمثيل لنعيم الجنة الوافر الذي لم تره عين ولا يخطر على قلب بشر، و(دانية) قريبة المأخذ سهلة التناول جدًّا، للراكب والقائم والقاعد والمضطجع، كل ذلك على حد سواء دائمًا من غير انقطاع ولا كلفة على أحد من أهلها في تناول شيء من ذلك.

ولما كان كون الثمار بهذه الصفة دالًّا على كثرة الري، وكثرة الري دالة على المشرب، وكانت من مفردات اللفظ عامة المعنى، فكان قد أفرد الضمائر باعتبار لفظها؛ تنصيصًا على كل فرد، ثم جمع باعتبار المعنى؛ إعلامًا باشتراك جميع أهلها في النعم حال الانفراد والاجتماع، فقال: (كلوا واشربوا) إشارة إلى أن ذلك لا مانع منه، فإنهم يؤمرون به صريحًا؛ دلالة على رضا صاحب الجنة لئلا يتنغص عليهم عيشهم بنوع من الأنواع الموهمة للخطر، وحذف المفعول للتعميم؛ لئلا يظن أنه يستثني منها شيء فيكون سبب الفتنة كما وقع لآدم صلوات الله وسلامه عليه[٧١]، وفي الأمر حث وحض على الاستزادة من طعام الجنة وشرابها، لأنه ليس كطعام الدنيا يورث التخم والأمراض، بل هو طعام هنيء، و(هنيئًا) صيغة مبالغة؛ إشارة إلى كونه «أكلًا طيبًا لذيذًا شهيًّا، مع البعد عن كل أذى، وسلامة العاقبة بكل اعتبار، ولا فضلة هناك من بول ولا غائط ولا بصاق ولا مخاط ولا قرف ولا قذر ولا وهن ولا صداع ولا ثقل ولا شيء مؤذ»[٧٢].

وهنا وقع أيضًا التفات عن الغياب (فهو في عيشة ....) إلى الخطاب (كلوا واشربوا)؛ لأن الأمر بالشيء والحث على الفعل يناسبه الخطاب، والخطاب فيه ما فيه من الاعتناء والاهتمام، وحضور المخاطِب/ الآمر، والمخاطَب/ المأمور، والآمر هنا هو الله تعالى، وهذا دليل على عظمة المأمور ورفعته، فعظمة الآمر تنعكس على المأمور وتدل على رفعة قدره عند المأمور، فهؤلاء عظيمو القدر عند الله العظيم، وفي أمره سبحانه تودد لهم؛ لأن المضيِّف الكريم دائمًا ما يتودد إلى ضيفه ويستحثه على بلوغ غايته من المأكل والمشرب وكل ما يُسْعِد.

والآيات ترتب النتيجة على السبب، فكما رتب إعطاء الكتاب باليمين والنجاة من هول الموقف يوم القيامة على الإيمان اليقيني بوقوع هذا اليوم، رتب حصول التنعم بالعيشة المرضية في جنة عالية ذات الثمار والمشروبات المنوعة الهنيئة قريبة التناول المبذولة في كل وقت وحين على ما قدم هذا المؤمن ليوم القيامة، رتب كل هذا النعيم على العمل الصالح، في إشارة إلى أن الإيمان لا يكفي وحده لنوال هذا الجزاء الحسن في الآخرة، وهذا هو معنى حسن الظن الذي أشارت إليه الآية؛ فإحسان الظن يعني إحسان العمل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾، (الباء) تفيد السببية، أي: تمتعوا بكل هذا النعيم بسبب (ما) الذي (أسلفتم) قدمتم من الأعمال الصالحة (في الأيام الخالية) الدنيا، «ومعنى الإسلاف في اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض»[٧٣]، وهذا تودد من الله تعالى لهؤلاء الفائزين ما بعده تودد، فكأن ما نالوه هو حقهم وليس تفضلًا وتكرمًا وتعطفًا عليهم من الله، وهذا يدل على ما وصل إليه هؤلاء من منزلة وكرامة، وعلى هذا فلفظ (أسلفتم) بعذوبة جرسه يناسب أهل اليمين وما ينعمون به، والغرض من التعبير بهذا اللفظ أن يزداد سرورهم، فإنه يقال للمعاقب: هذا بعملك الرديء فيزداد غمه وألم قلبه، ويقال للمثاب: هذا بطاعتك، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة في سروره[٧٤]. ووصف أيام الدنيا بـ(الخالية)؛ لأنها خالية من اللذائذ الحقيقية، وقيل: التي أخليتموها من الشهوات النفسانية[٧٥].

وتأمل كيف هدأ الإيقاع رويدًا رويدًا في هذا المنظر منظر الناجي بما يتناسب مع جو البهجة والتنعم والهدوء الذي يظلل عيشة هؤلاء في الجنة، هذا الإيقاع منشؤه غلبة الأصوات المهموسة على المجهورة، وكثرة تكرر صوت (الهاء)، وهو صوت واهن.

المشهد الرابع– حسرة الخاسر وعقوبته:

لما كانت العادة جارية بأن أهل العرض ينقسمون قسمين: مقبول ومردود، وذكر سبحانه وتعالى المقبول بادئًا به؛ تشريفًا وتكريمًا له، وتشويقًا إلى حاله، وتغبيطًا بعاقبته وحسن مآله، وحثًّا على اتباع طريقه والاقتداء به؛ لنيل ما نال.. لما ذكر الله المقبول أتبعه بذكر المردود؛ تحقيرًا لشأنه،

وتنفيرًا عن أعماله، وتحذيرًا من سلوك مسلكه، فقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ**﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٧]

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ (الواو) عاطفة، و(أما) تفصيلية، فكما فصلت الآيات حال الناجي، تفصل هنا حال الخاسر، و(من) اسم موصول للعاقل غير مختص يصلح للمفرد والجمع، وللمذكر والمؤنث، أي: أن الأهوال التي تفصلها الصلة تنال الجميع، و(أوتي) أي: أعطي، وبني الفعل للمجهول بحذف الفاعل (إيجاز بالحذف) لأنه لم يتعلق غرض بذكر الفاعل، ولأنه معلوم، وللدلالة على يسر الفعل على الفاعل، ولأن المتوخى من التعبير هو إبراز عملية الإعطاء وأن المعطَى هو الكتاب الخاص بالشخص، وأنه أعطي (كتابه) صحيفة أعماله (بشماله)، و(الباء) بمعنى (في)، أي: أعطي كتابه في شماله، وفي استعمال (الباء) ما يشعر بالاستسلام التام فلا إرادة، فكأنه هو من مد يده إلى الكتاب وأخذه مستسلمًا طائعًا، وهذا يدل على تمام الذل والخضوع لله الواحد القهار في ذلك اليوم، و«على ذل الأخذ، وعدم قدرته على الامتناع عن شيء يسوؤه»[٧٦].

وكما أن إعطاء الكتاب باليمين يدل على النجاة؛ لما في لفظ (اليمين) من اليمن والتفاؤل، فإن إعطاء الكتاب بالشمال دليل على الخسران والبوار والتحقير والشؤم؛ ولذلك فإن من يؤتى كتابه بشماله يصرخ: ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (الفاء) للترتيب والتعقيب؛ فإنه بمجرد إعطائه كتابه ينطق بهذا القول الذي بني على التمني (يا ليتني) المفيد للتحسر؛ وذلك «أنه لما نظر في كتابه وتذكر قبائح أفعاله خجل منها، وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار، فقال: ليتهم عذبوني بالنار، وما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكرني قبائح أفعالي حتى لا أقع في هذه الخجالة، وهذا ينبهك على أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني»[٧٧].

وجريًا على العادة في حذف الفاعل ببناء الفعل للمجهول أتي الفعل (لم أوت)؛ لأن الغرض لم يتعلق بالفاعل ولأنه معلوم، ولكن الغرض متعلق بالرغبة في عدم تحقق الإعطاء، ويشي حذف الفاعل أيضًا بخجل هذا الإنسان من الله؛ فلفرط خجله منه لم يستطع التصريح به وذكره. و(كتابيه)، أي: صحيفة الأعمال الخاصة بهذا الشخص التي ذكرته بخبائث أعماله.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ (الواو) عاطفة، عطفت هذه الجملة على ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾، ومعنى هذا أن أداة التمني (يا ليتني) محذوفة، وتقدير الكلام: ويا ليتني لم أدر ما حسابيه، أي: لم أعلم حسابي هذا على ما قدمت في الدنيا، وحذفت أداة التمني هنا لتعجيل مساءة هذا الخاسر، فعجل له معاينة الحساب؛ زيادة في التحسير والتحقير، و(ما) حقيقة (حسابيه) من ذكر العمل وذكر جزائه، بل استمريت جاهلًا لذلك كما كنت في الدنيا، فلما وقع ما وقع من أخذه كتابه واطلاعه على ما فيه من قبائح، وعاين الحساب عليها، وتبين جزاءه الوبيل الشنيع عليها، عاود تمنيه المحال وقوعه: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (يا لَيْتَها) تكرير للتمني وتجديد للتحسر، «ولم يعطف على التمني الأول؛ لأن المقصود التحسر والتندم»[٧٨] (كانت القاضية)، أي: يا ليت الموتة التي متها وذقتها، وهنا حذف الموصوف (الموتة) لأنها في حكم المذكور بدلالة المقام (كانَتِ الْقاضِيَةَ)، أي: القاطعة لأمرى وحياتي ولم أبعث بعدها، فهو يتمنى عند مطالعة كتابه أن لو دامت عليه الموتة الأولى، وأنه لم يبعث للحساب، ولم يلق ما أصابه من الخجالة وسوء العاقبة، ويجوز أن يكون ضمير (ليتها) عائد على ما شاهد من تلك الحالة، أي: يا ليت (هذه الحالة) وهي: إعطاء الكتاب بالشمال وعرضه على الحساب وتبين جزائه، فهو يتمنى أن تكون هذه الحالة القاضية عليه المنهية لحياته إلى الأبد، لكن تصديره الكلام بالتمني دليل على استحالة تحقق هذا له، وهو بتكراره التمني يعلم علم اليقين أن ما يتمناه يستحيل وقوعه، وانظر إلى المفارقة الرهيبة، فالإنسان في هذا الموقف يتمنى الموتة القاطعة للحياة وقد كان في الدنيا أحرص ما يكون على حياة، وأشد ما يكون كراهية للموت؛ وذلك لما وجد تلك الحالة أمر وأنكى من الموت.

ولما وجد نفسه أمام أمر واقع، وأنه قد حلت به المصائب التي لا فكاك عنها، رجع إلى نفسه يلومها ويعنفها، هذه النفس التي غرتها الأماني بالغنى والسلطان: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (ما) قد تكون نافية، ويكون المعنى: لم يغن عني (ماليه)، أي: الذي كان لي في الدنيا من المال ونحوه كالأتباع، وقد تكون (ما) استفهامية؛ لإفادة التحسر والندم، أي: أي شيء أغنى عني مالي؟ والجواب معروف بالنسبة: لا شيء، وحمل (ما) على الاستفهام يكشف مدى الصدمة التي انتابت هذا الإنسان، فبعدما ظن أنه بغناه وما يملك أن الساعة لن تقوم، وأنه لو رد إلى ربه ليجدن من هذا الغنى وما يملك خيرًا منه منقلبًا، إذا بهذا الغنى وقد قامت الساعة وعرض على الحساب يتحول إلى سراب، وإذا به إزاء صدمته لا يملك إلا أن يطلق هذا السؤال الحائر المعبر عن العجز التام يوبخ به نفسه، وهذا حال «من كان ذا مال وذا سلطان من ذلك الفريق من جميع أهل الإشراك والكفر، فما ظنك بحسرة من اتبعوهم واقتدوا بهم إذا رأوهم كذلك؟»[٧٩].

وقد ضمَّن الجار والمجرور (عني) جملة (أغنى) معنى طرد الأذى وإبعاد العذاب.. وبهذا تشي الجملة باغترار الكافر بماله وتعليقه الآمال الواهمة عليه، ثم مرارة خيبته وفرط عجزه؛ لأن ماله لم يفده في آخرته ولم يدفع عنه ضرًّا.

وإزاء هذا العجز المطبق عليه يطلق صيحة أخرى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾، وعبر بـ(هلك) ولم يعبر بذهب؛ «وذلك أن الذهاب قد يكون على مراصدة العود، وليس مع الهلاك بقيا ولا رُجْعَى»(٨٠)، ويمكن أن تحمل الآية على الاستعارة، والسلطان بمعنى: الملك الذي يكون في الدنيا، أو بمعنى: الحجة والبرهان.

ولاحظ أن الإيقاع عاد إلى ارتفاعه في هذه اللوحة، وبخاصة الجمل التي يحاور فيها الخاسر نفسه؛ إذ جاءت التوقيعات بمثابة الصرخات المعبرة عن زفرات مكبوتة، فإذا ما انطلقت كانت مثل الفرقعات؛ لتعبر عن نفس في غاية الضيق والألم والحسرة.

ومما ينبغي تأمله في اللوحة السابقة أنه عبر كل الأحداث المستقبلية بصيغة المضي (أوتي، لم أوت، لم أدر، كانت، هلك) إلا الفعل (يقول)، والغرض إفادة تحقق وقوع الأحداث التي ارتبطت بصيغة الماضي، ولكن لما عبر بصيغة المضارع (يقول) فإنما نقل حوار الخاسر مع نفسه حيًّا أمام المتلقي.

وتأمل كيف بدأ الحق حديثه عن المارق في الآيات السابقة بصيغة الغائب: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ ثم التفت إلى الحديث عنه بصيغة التكلم: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ... هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾؛ وذلك أن الكلام أولًا إخبار الله تعالى عنه، فتحدث عنه بالغياب، وصيغة الغياب أنسب للإخبار، وأيضًا مناسب للمقام؛ فالله لا ينظر إلى مثل هذا الشخص ولا يحب ذلك؛ فجُعِلَ في حكم الغائب عن نظر الرحمن، أو لأن الله غيبه عن رحمته، لكن لما ساق الحق الكلام على لسان هذا الخاسر عدل إلى صيغة التكلم، وصيغة التكلم تعني الحضور، فإنما أراد الحق أن ينقل للسامع حوار هذا الخاسر مع نفسه، هذا الحوار الذي يكشف عن مدى التحسر؛ استحضارًا للمشهد؛ للاعتبار والاتعاظ.

وبعد أن التفت الحق من الغياب إلى التكلم عاد إلى الحديث عنه بصيغة الغياب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾، والغياب يتناسب مع تغييبه في النار وعن رحمة الله، فالآيات تحكي أمر الله لزبانية النار بأخذه وتقييده ثم حرقه في النار وإدخاله في هذه

السلسلة العظيمة، وغيرها من أنواع العقوبات التي كان سببها عدم الإيمان وعدم الحض على طعام المسكين.

وانظر هذه الأوامر الحاسمة الجازمة بهذا المصير المروع للكافر: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾، (خذوه) يعني: أمسكوه بقسوة وشدة، (فغلوه): قيدوه بالأغلال. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١)﴾: اجعلوه يصلى الجحيم، أي: يحرق بنارها. ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾: يراد بالعدد هنا التكثير كقوله تعالى :﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، (فاسلكوه): تدخل عنقه ثم يجر بها، أو تدخل في دبره حتى تخرج من فيه.

والآيات ذكرت المسبب (العقوبة) قبل السبب (الفعل الذي أوجب العقوبة) تعجيلاً للمساءة، ولزيادة الإهانة والتحقير؛ ليرى نتيجة عناده؛ وذلك أنه ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)﴾ فـ«هذا بيان للسبب الذي استحق من أجله هذا العذاب، أي: استوجب واستحق هذا النكال؛ لأنه كان في الدنيا مستمرًا وقائمًا على الكفر بالله العظيم، وجاءَ وصفه I بـ(العظيم)؛ ليشعر ذلك بعظم وشدة عذابه Y، واستحق العذاب أيضًا لأنه لا يحث ولا يحرض غيره على طعام المسكين فضلا عن أن يبذل هو من ماله، فهو يجمع بين البخل بماله والشح على المساكين من مال غيره، وقال صاحب الكشاف: وفي قوله تعالى: ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المساكين؛ أحدهما- عطفه على الكفر وجعله قرينًا له، والثاني- ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل؟!»[٨١].

وكأنه لم يكف هذا الخاسر ما ناله من عقوبات سبقت فإذا بالله يزيده عذابًا فوق العذاب: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾، أي: فليس له في الآخرة قريب يدفع عنه ويحزن عليه؛ لأنهم يتحامونه ويفرون منه، والغسلين: هو غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدم، أي: ليس لهؤلاءِ الأشقياءِ التعساءِ طعام يطعمونه إلا هذا الصنف البشع المنتن الذي لا يأكله أحد إلاّ هؤلاءِ القوم الذين كانوا يتعمدون ويقصدون فعل الآثام والذنوب، فهذا الكافر لا يطعم إلا من (غسلين) هذا الطعام المقزز الذي تكاد الحروف تجسده!

وقد عدل الأسلوب في اللوحة السابقة عن الترتيب الطبيعي للجملة العربية فقدم ما يستحق التأخير، والعكس بالعكس، لهدف فني تهدف إليه. ففي قوله سبحانه :﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ بدأ بالجار والمجرور وأخر الفعل؛ حفاظًا على الفاصلة، وتحقيقًا لجمال

الإيقاع الموسيقي، وإبرازًا للمهانة التي يتجرعها هذا الأسير الذليل المقيد. (فِي سِلْسِلَةٍ) ... فقد تقدمت السلسلة على (فَاسْلُكُوهُ) كما تقدمت (الجحيم) على (صلوه)؛ لأن المراد لا تسلكوه إلا في النار العظمى، وإلا في هذه السلسلة، وقريب من هذا ما نلمسه في قوله تعالى :﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ من تأخير اسم ليس، وكما سبقت الإشارة فإن إيقاع الآيات قد تأثر بهذا الأسلوب أيما تأثر.

المشهد الخامس الختامي– بشاعة التكذيب بالقرآن:

في هذا المشهد عودٌ من المستقبل البعيد إلى الحاضر المعيش، ومن الحديث عن الآخرة إلى الحديث عن الحاضر الدنيوي، وهو: التكذيب بالقرآن والقول فيه بغير الحق، وفي هذا المشهد يقول I: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)**﴾ [الحاقة: ٣٨-٥٢].

ولعل سائلاً يسأل: ما الذي يربط هذا الحديث عن القرآن وأنه نزل من عند الله، وأنه ليس بشعر ولا كهانة بالحديث عن مشاهد القيامة قبله؟

إن المتأمل في السورة من أولها إلى آخرها يعلم أن المحور الذي تدور عليه السورة هو التشنيع والتحذير من التكذيب بأمور العقيدة؛ فشنع وحذر من فعل ثمود وعاد وهو تكذيبهم بيوم القيامة، وشنع وحذر من فعل فرعون ومن قبله وقوم لوط وهو تكذيبهم وعصيانهم لرسل الله وكفرهم بربهم، وحذر من فعل قوم نوح بتكذيبهم إياه، وكان من الطبيعي أن يُلحِقَ بهذا التكذيب ما ترتب عليه من عقوبات دنيوية وأخروية؛ تحذيرًا وتخويفًا لمن يفعل فعلَ هؤلاء، ولْيُوقِفَ الحقُّ تعالى السامعَ على خطورة التكذيب بأمور العقيدة الإيمانية، وأن هذا الأمر لا تسامح فيه، وفي معرض هذا الترهيب الذي يجلل السورة إذ بنا بهذا المشهد الترغيبي الذي يبين جزاء المؤمن الْمُصدِّق وما ناله من الثواب العظيم والأجر الجزيل في الآخرة، كل هذا يسوقه الحق I قبل التعريض والتشنيع بالمكذبين بالقرآن الكريم الذي هو أيضًا أمر من أمور العقيدة؛ لِيرجع هؤلاء المكذبين عن تكذيبهم ويَتَوَقَّوا ما وقع فيه السابقون من التكذيب حتى لا يصيروا إلى ما صاروا إليه من العقوبة، ويؤمنوا به حتى ينالوا جزاء

المؤمنين في الآخرة، وهذا الترهيب والترغيب الغرض منه حمل السامع على الإيمان بالقرآن وعدم التكذيب به.

إن مضمون السورة في هذا المشهد يتحول إلى واقع المشركين المكذبين بالرسول ﷺ وبما أنزل عليه فيرد عليهم بهذا القسم: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ بما فيه من إشعار بعظمة الله سبحانه، الخالق لما نرى وما لا نرى، أو ما نبصر من آثار القدرة، وما لا نبصر من أسرار القدرة، كما أن (لا) المصدرة بها الآية – التي قيل عنها: إنها زائدة تارة ونافية تارة أخرى – هنا تضاعف من هذا الإحساس؛ لأنها في حال القول بزيادتها تفيد – عند القائلين بهذا – تأكيد القسم. أما إذا كانت نافية — عند القائلين بهذا – فإنها توحي أن المقسم عليه من الثبات والوضوح والتأكد بحيث لا يحتاج إلى قسم، والأَوْلَى القول بأن «(لا) ردٌّ لكلام المشركين كأنه قال: ليس كما يقول المشركون»[٨٢]، أي: رد لكلام سبق منهم، وهو قولهم عن القرآن: إنه قول بشر مرة، وشعر مرة، وكهانة مرة أخرى، وليس هذا منهم بالقول السديد، ومن ثم جاء أسلوب القسم ﴿أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ للتأكيد على أن القرآن بخلاف هذا، وبناء على هذا التوجيه فإنَّ هنا إيجازًا بالحذف، فقد حذف المنفي بعد (لا)، وهو زعم المشركين بأن القرآن من كلام محمد وأنه لا يعدو كونه شعرًا وكهانة، ويدل على المحذوف الكلام بعده.

وهذا الوجه الأخير هو أقوى الوجوه وأولاها بالقبول، وذلك لأمور:

أولها– أن القول بزيادة (لا) للتوكيد فيه محظوران: الأول– التناقض؛ إذ كيف تكون (لا) زائدة ومفيدة للتوكيد في الوقت نفسه، الزيادة تتنافى مع الإفادة. والثاني– عدم جواز القول بالزيادة في القرآن، فكل لفظ في القرآن في مكانه، لا نستطيع حذفه أو تبديله، وإلا لحصل فساد المعنى وذهاب رونق الكلام وبلاغته.

وثاني الأمور– أن القول بأن (لا) في الآية لنفي القسم يضعفه المراد من المقسم به، وهو ما نبصر وما لا نبصر، وما لا نبصر يشمل «الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة»[٨٣]، فإذا كان من المقسم به غير المرئي: الخالق سبحانه فليس من قبيل التأدب معه القول بالنفي.

وثالث الأمور– جواب القسم ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ واضح في أنه جاء ردًّا على كلام مناقض له، فقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ رد على قول المشركين: إن القرآن قول البشر، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ

بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ رد على قولهم: إن القرآن شعر، وقوله: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ رد على قولهم: إن القرآن كهانة، ولا يوجد ردّ إلا على كلام موجود فعلاً، فإن لم يكن هذا الكلام مذكورًا في اللفظ فلابد أن يكون قد حذف؛ لدلالة الكلام عليه، وهذا شائع في القرآن أنه يطوي من الكلام ما يقوم الدليل على وجوده فعلاً، وهذا من عظيم بلاغته.

وفي جواب القسم أربعة أخبار، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جاء الجواب الأول جملة اسمية ومؤكدًا بأكثر من مؤكد، وأورد هذا الخبر مؤكدًا هكذا ردًّا على إنكار هؤلاء المنكرين على محمد ﷺ أن يأتي بهذا القرآن، فكيف يستطيع أن يأتي بمثله وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة ولم يخُطّ بيمينه قط، وجاءت الأخبار الثلاثة الباقية غير مؤكدة بأي مؤكد؛ لأن الخبر الثاني والثالث المنفيين مما لا يماري فيهما عاقل أو ينكرهما منكر؛ لأنه من الوضوح بمكان مباينة القرآن المباينة التامة للشعر والكهانة، وهو ما أقرت به العرب حين قال قائلهم – وهو الوليد بن المغيرة –: «والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»[٨٤]، ثم جاء الجواب الرابع خبرًا غير مؤكد كذلك؛ لأن نزول القرآن الكريم وأنه من عند الله لا ينكر ذلك منكر؛ لأنه دال بإعجازه الثابت أنه لا يستطيعه بشر؛ فدل ذلك على أنه من عند الله.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ والآيات بعده تَمَّ تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بوضع المضمر موضع المظهر؛ فلم يُذْكَرِ القرآن بالاسم الظاهر في أيّ موضعٍ من السورة، لكن تم التعبير عنه بضمير الشأن في كل المواضع؛ تفخيمًا وتعظيمًا لشأن القرآن؛ لأن هذا الضمير لا يأتي إلا في الأمور المهمة، والأخبار ذات البال، والمعاني الجليلة، ثم إن القرآن الكريم من الظهور والوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى الدلالة عليه باسمه، بل يكفي الضمير في الدلالة عليه وتحديده أتم تحديد.

وأضيف القول الذي هو القرآن إلى الرسول؛ «لأن ظهوره في حقنا كان به، وهذا كما أضيف ما وعاه القلب إلى الأذن بقوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾؛ لأنه إنما يُوصَلُ إلى الوعي بالأذن؛ فعلى ذلك أضيف القول إلى الرسول من حيث كان سماع الخلق له من جهة الرسول ﷺ»[٨٥]. وقيل: إن المقصود برسول كريم، هو: جبريل عليه السلام، وأضيف القول إليه؛ «لأنه هو ينزل به، ...، وهذا من اتساع لغة العرب»[٨٦].

ولما كان القرآن قول رسول كريم فهو ليس بشعر ولا كهانة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ تماثل دقيق من حيث الصياغة والدلالة؛ فهما يكادان يستغرقان زمنًا واحدًا في النطق وزيادة الضمير المنفصل (هو) في الآية الأولى، يقابلها امتداد الصوت وطول الزمن في نطق (تذكرون) في الآية الثانية. وهذا التماثل الصوتي يثير الانتباه بإيقاعه إلى خطورة القضية، كما أنه يشي بالتماثل الدلالي من جهة أن الآيتين يتصدرهما أمر منفي؛ في الأولى نفي صفة الشعر عن القرآن، وفي الثانية نفي صفة الكهانة عنه، وختمتا ببيان موقف المخاطبين من مباينة القرآنِ للشعرَ ومباينته الكهانة، فهم حائرون بين التصديق بمباينة القرآن الشعرَ وبين التكذيب بذلك، وهذا التردد وتلك الحيرة ناشئ عن علمهم اليقيني بمباينة القرآن للشعر، لكن عنادهم منعهم من الإقرار بذلك، فهم يؤمنون بهذا التباين في أنفسهم ويزعمون خلافه بألسنتهم؛ ولذلك قال: ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ فلم ينف عنهم التصديق كلية، فانظر إلى الدقة الأدائية. وكذلك هم قليلو التذكر بشأن مباينة القرآنِ الكهانةَ؛ لأن القرآن له تأثيره في النفوس الذي لا ينكر، وهم أنفسهم تأثروا به، والأمثلة على تأثر عتاة المشركين به كثيرة وإقرارهم بذلك حالاً ومقالاً ثابت واقعًا وتاريخًا، لكن عنادهم حملهم على الزعم بأن القرآن كهانة، ولما كان حالهم كذلك لم ينف عنهم التذكر والتأثر كلية، بل راعى الحالين، حال التذكر والتأثر الواقعة فعلاً بالقرآن، وحال الإنكار العلنية لمباينة القرآنِ الكهانةَ الموحية بعدم تأثرهم به؛ ولذلك قال: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾، فانظر أيضًا إلى الدقة الأدائية.

و«يحتمل أن يكون تأويله: فبقليل ما تؤمنون، وبقليل ما تذكرون مما جاءكم به الرسول، فالقليل الذي آمنوا به وتذكروا فيه هو الذي كان راجعًا إلى منافعهم، فأما الذي كان عليهم فهم لم يؤمنوا به ولا تذكروا فيه»[٨٧].

ويمكن حمل الآيتين على أن فيهما إيجازًا بالحذف، فلما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ نافيًا الشعرية عن الرسول ومن ثم القرآن، طوى كلامًا تقديره: لأنه لو كان شاعرًا، فإنكم أيها المخاطبون ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ بالشعر والشعراء؛ لأنكم تعلمون أن الشعراء يكذبون ويهيمون ويهومون ويقولون ما لا يفعلون وقليلاً ما يصدقون؛ ولذلك جاءت الفاصلة تعبيرًا عن واقع الحال. ولما قال سبحانه: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ نافيًا الكهانة عن الرسول والقرآن، كأنه طوى كلامًا بعد هذا النفي تقديره: لأنه لو كان كاهنًا، فإنكم أيها المخاطبون ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالكهانة والكهان؛

لأنكم تعلمون كذبهم وتخرصهم والتماسهم الحقيقة بأمور لا أساس لها، والإخبار عن المغيبات بما لا يستطيعه بشر؛ ولذلك لا تتأثرون بكلامهم إلا قليلاً.

وقال الماتريدي: «جائز أن يكون أضاف القليل إلى قول: الكاهن والساحر، وتأويله: أن الأمور لو كانت على ما تزعمون بأنه قول كاهن وقول ساحر، فما بالكم لا تصدقون بالقليل منه، وقد تعلمون أن الساحر وإن كان الغالب عليه الكذب فيما يأتي، فقد يصدق في القليل منه، وكذلك الكاهن، فما لكم لا تصدقون بالقليل منه، وأنتم تعلمون أنه صادق، فإن كان على هذا فهو في موضع إيجاب الحق عليهم أن يصدقوه»(٨٨).

وذكر في نفي الشعرية ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ وفي نفي الكهنوتية ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ «والسبب فيه كأنه تعالى قال: ليس هذا القرآن قولاً من رجل شاعر، لأن هذا الوصف مباين لصنوف الشعر كلها إلا أنكم لا تؤمنون، أي لا تقصدون الإيمان؛ فلذلك تعرضون عن التدبر، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم: إنه شاعر؛ لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر، ولا أيضًا بقول كاهن، لأنه وارد بسَبّ الشياطين وشتمهم، فلا يمكن أن يكون ذلك بإلهام الشياطين، إلا أنكم لا تتذكرون كيفية نظم القرآن، واشتماله على شتم الشياطين، فلهذا السبب تقولون: إنه من باب الكهانة»(٨٩).

وذهب بعضهم إلى أن المراد بـ(قليلاً) في الآيتين نفي إيمانهم وتذكرهم أصلاً، كقولك لمن لا يزورك: قلما تأتينا. وأنت تريد: لا تأتينا أصلا(٩٠)، فـ«القلة في معنى العدم، أي: لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتة»(٩١).

وأخيرًا، يختم هذا المقطع بتلك الجملة الاسمية المؤكدة لصدق القرآن وسمو مصدره ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بتلك التسمية الفريدة (رب العالمين) التي تعتبر من أدق التعابير وأرقاها في الدلالة على مفهوم الإله الواحد القوي القادر في العقيدة الإسلامية. وهذا القول جاء بيانًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: القرآن قول رسول – وهو محمد ﷺ – نزل عليه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فليس قوله هو، وإنما أضيف إليه «لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ١٩-٢١] وهذا جبريل عليه السلام، ...، فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلاً منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه، ولهذا قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»(٩٢).

وعبر بالمصدر (تنزيل) «والقرآن الذي في كتاب ليس تنزيلاً، إنما هو منزل كما قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**﴾ [الشعراء: ١٩٣] نقول: ذِكْرُ المصدر وإرادة المفعول كثير، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ**﴾ [لقمان: ١١]، فإن قيل: ما فائدة العدول عن الحقيقة إلى المجاز في هذا الموضع؟ فنقول: التنزيل والمنزل كلاهما مفعولان ولهما تعلق بالفاعل، لكن تعلق الفاعل بالمصدر أكثر، وتعلق المفعول عبارة عن الوصف القائم به، فنقول: هذا في الكلام، فإن كلام الله أيضًا وصف قائم بالله عندنا، وإنما نقول: من حيث الصيغة واللفظ ولك أن تنظر في مثال آخر ليتيسر لك الأمر من غير غلط وخطأ في الاعتقاد، فنقول: في القدرة والمقدور تعلق القدرة بالفاعل أبلغ من تعلق المقدور، فإن القدرة في القادر والمقدور ليس فيه، فإذا قال: هذا قدرة الله تعالى كان له من العظمة ما لا يكون في قوله: هذا مقدور الله؛ لأن عظمة الشيء بعظمة الله، فإذا جعلت الشيء قائما بالتعظيم غير مباين عنه كان أعظم، وإذا ذكرته بلفظ يقال مثله فيما لا يقوم بالله وهو المفعول به كان دونه، فقال: تنزيل ولم يقل: منزل، ثم إن هاهنا: بلاغة أخرى، وهي: أن المفعول قد يذكر ويراد به المصدر على ضد ما ذكرنا، كما في قوله: ﴿**مُدْخَلَ صِدْقٍ**﴾ [الإسراء: ٨٠]، أي: دخول صدق أو إدخال صدق، وقال تعالى: ﴿**كُلَّ مُمَزَّقٍ**﴾ [سبأ: ٧] أي تمزيق، فالممزق بمعنى التمزيق، كالمنزل بمعنى التنزيل، وعلى العكس سواء، وهذه البلاغة هي أن الفعل لا يرى، والمفعول به يصير مرئيًّا، والمرئي أقوى في العلم، فيقال: مزقهم تمزيقا وهو فعل معلوم لكل أحد علمًا بينًا يبلغ درجة الرؤية ويصير التمزق هنا كما صار الممزق ثابتا مرئيًّا، والكلام يختلف بمواضع الكلام، ...، وقوله: من رب العالمين – أيضًا – لتعظيم القرآن، لأن الكلام يعظم بعظمة المتكلم، ولهذا يقال لرسول الملك: هذا كلام الملك أو كلامك؟ وهذا كلام الملك الأعظم أو كلام الملك الذي دونه، إذا كان الرسول رسول ملوك، فيعظم الكلام بقدر عظمة المتكلم، فإذا قال: من رب العالمين تبين منه عظمة لا عظمة مثلها»(٩٣).

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أمرين: الأول– إبطال زعم المشركين بأن القرآن ﴿**قَوْلُ الْبَشَرِ**﴾ [المدثر: ٢٥]، أو أن محمدًا «عثر على بعض كتب الله تعالى التي نزلت على من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فانتحلها من غير أن يوحى إليه، وكان الدليل على أن ذلك ليس كذلك: أن العادة تحيل أن يطلع شخص من الناس على شيء لم يطلع أحد منهم، ولا سيما إن كان ذلك الشخص قليل المخالطة للعلماء، فكيف إذا كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ كما كان ﷺ؟!»(٩٤). وثاني الأمرين– عمومية الرسالة المحمدية؛ فالقرآن مرسل إلى «جميع الخلق

من أهل السماوات والأرض بقوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: موجدهم ومدبرهم بالإحسان إليهم بما يفهم كل منهم من هذا الذكر الذي رباهم به، ورتب سبحانه نظمه على وجه سهله على كل منهم شيئًا يكفي في هدايته البيانية، بخلاف الشعر والكهانة فإنه لا يفهمهما إلا قليل من الناس لا جميع العالمين، بل كثير من أكابر العلماء وحذاقهم ربما قرئ على أحد منهم الآن القصيدة من قصائد العرب فلا يفهم المراد منها ولا يتضح له بوجه»[٩٥].

ويبرز المشهد شناعة الجرم الذي ارتكبه المشركون بما رموا به القرآن الكريم، وينذرهم بسوء العاقبة بهذا الفرض المستحيل ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤)﴾، وبعنف وفظاعة الجزاء المترتب عليه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾.

«﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾، أي: كلف نفسه أن يقول مرة من الدهر كذبًا ﴿عَلَيْنَا﴾ على ما لنا من صفات العظمة والجلال والبهاء والكمال والكبرياء ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ التي لم نقلها أو قلناها ولم نأذن له فيها، ...، ﴿لَأَخَذْنَا﴾، أي: بعظمتنا أخذ قوة وغضب وقهر وإهلاك، وأكده للإعلام بشدة الغضب من الكذب وشدة قبحه. ولما كان أخذه أخذًا يتلاشى عنده كل أخذ لأن من افترى على الملوك لا يفعل به إلا ذلك قال: ﴿مِنْهُ﴾، أي: خاصة ﴿بِالْيَمِينِ﴾، أي: التي هي العضو الأقوى منه فيها يكون بطشه فنذهبه بشدة بطشنا أو اليمين منا، فيكون كناية عن أخذنا له بغاية القوة، فإن قوة كل شيء في ميامنه، وقيل: إذا أراد الملك إهانة شخص قال: خذه يا فلان، فيأخذه بيمينه، فهو كناية عن الإذلال، وقيل: هذا تصوير قتل الصبر بأشنع صورة، فإن الملك إذا أراد التخفيف على من يقتله أمر السياف فأخذ يساره بيساره، وضرب بالسيف من ورائه؛ لأن العنق من خلف أوسع؛ فيكون أسرع قطعًا، ولا يرى المقتول لمع السيف، وإن أراد التعذيب والمبالغة في الإهانة أخذ يده اليمنى بيده اليسرى وضربه وهو مستقبل له يرى لمع السيف، وربما وقعت الضربة لضيق المجال من قدام في حنكه فيحتاج إلى ثانية وثالثة فهو أفحش»[٩٦].

وقيل: إن المعنى «لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه؛ قالوا: وإنما ذلك مَثَلٌ، ومعناه: إنا كنا نذله ونهينه، ثم نقطع منه بعد ذلك الوتين، قالوا: وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه، خذ بيده فأقمه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله: (لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)، أي: لأهناه كالذي يفعل بالذي وصفنا حاله»[٩٧].

«ولما صور مبدأ الإهلاك بأفظع صورة، أتمه مشيرًا إلى شدة بشاعته بحرف التراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا﴾ حتمًا ... – بما لنا من العظمة – قطعًا يتلاشى عنده كل قطع، ﴿مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، أي:

العرق ...، وفي القاموس: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه – انتهى. واختير التعبير به لأن مادته بهذا الترتيب تدور على المتانة والدوام، فلذا كان يفوت صاحبه بفواته»[٩٨]، والوتين هو ما يطلق عليه الآن في العلم الحديث الشريان الأورطي، وهو أكبر شريان في جسم الإنسان، وهو الشريان الأساسي في الدورة الدموية في جسم الإنسان، وهو المسؤول عن إيصال الدم والأكسجين لخلايا الجسم؛ ومن ثم فعليه مدار حياة الإنسان.

وإذا كانت عقوبة الله بهذه الشناعة في حق حبيبه ومصطفاه إن هو تقول عليه ما لم ينزله عليه أو يأمره به، فكيف بعقوبة غيره ممن هم أقل منزلة ومكانة منه عند الله إن هم تقولوا عليه أو قالوا في كلامه ما ليس فيه؟ بطبيعة الحال ستكون أقسى وأشنع، فهذا القول الكريم ما هو إلا تعريض بهؤلاء المشركين الذين تقولوا على القرآن ورموه بما ليس فيه، تارة يقولون: شعر، وتارة يقولون: كهانة، وتارة يقولون: قول البشر، إلى غير ذلك من الأقاويل المزعومة، يُعرِّض بهم كي يثوبوا إلى رشدهم.

ولما أتم تصوير شناعة العقوبة، سبب عنه – إتمامًا لعظمته – قوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ﴾، أي: أيها الناس، وأغرق في النفي فقال: ﴿مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾، أي: عن القتل أو المقتول، ولما كان (أحد) عامًّا حقق عمومه واصفًا له، وأخبر عن (ما) على لغة الحجاز بقوله: ﴿حَاجِزِينَ﴾، أي: يكون حاجزًا جزمًا كثيفًا مانعًا من الوصول إليه ...، واختار الإخبار بالجمع لأنه يدل على عدم حجز الفرد من باب الأولى و(منكم) حال لتقدمه.

وهذا كله كناية على أبلغ الوجوه عن أن هذا الذكر كلام الله لا شبهة فيه بوجه، مضمومًا ذلك إلى وجوه إعجازه، فإن (لو) لامتناع الثاني لأجل امتناع الأول، فالتقدير كما يقال في القياس الاستثنائي: لَكِنَّا لم نأخذه هذا الأخذ؛ فثبت أنه ما تقول علينا شيئًا؛ فثبت أن ما قال كلامُنا ثبوتًا تامًّا بالبرهان على وجه لا يرام نقضه»[٩٩].

ولننظر إلى هذه الألفاظ من خلال الموقف الذي جاءت لتبرزه: (تقول، الأقاويل، لأخذنا، لقطعنا) لنرى مدى الحزم في أمر العقيدة الجديدة، وجسامة العقاب الذي يحل بمن يهزل أو يبدل فيها حتى إن كان محمدًا ﷺ، فضلًا عما يوحي به (تقول والأقاويل) من أن هذا الافتراء المفترض، لا يمكن أن ينتج عنه إلا شيئًا هزيلًا متهافتًا، أقرب إلى الأساطير.

ثم يأتي ختام السورة مرتبطًا برباط وثيق بالآيات السابقة، مؤكدًا مضمونها مبرزًا له؛ فالقرآن هدى وشفاء لصدور المؤمنين بالرسول وبما أنزل عليه، حسرة وضلالة على الكافرين ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ﴾، أي: القرآن تذكرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهم الخائفون الذين يخشون ربهم، «وهو تذكرة؛ لأنه يذكرهم الوعد والوعيد، وما يُتْقَى وما يُؤْتَى، وغير ذلك»(١٠٠)، وخص (المتقين) لأنهم الوحيدون الذين يخافون الله ويخشونه حق الخشية؛ ولذلك فهم حريصون كل الحرص على العمل بمقتضى القرآن، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ [ق: ٤٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فالذين يفيدون من هدايات القرآن المتقون.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩)﴾، أي: بالقرآن أو «بآياتي ورسلي، ثم نمهلكم، فهو صلة قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤)﴾ فبيَّن أنه مع كذبهم بآياته ورسله يمهلهم، ولا يعجل عليهم بالعقوبة، ولو وجد التقول من الرسول، لكان يستأصله، ويقطع وتينه، فعذابه على خواص عباده أسرع وقوعًا إذا خالفوا منه بأعدائه. وجائز أن يكون قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩)﴾ هم المنافقون؛ لأنهم كانوا يظهرون الموافقة لرسول الله ﷺ بألسنتهم، ويخالفونه ويكذبونه بقلوبهم؛ فيكون هذا التأويل راجعًا إلى أهل النفاق، والتأويل الأول إلى أهل الكفر الذين أظهروا التكذيب»(١٠١).

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: التكذيب بالقرآن سبب حسرة على الكافرين وندامتهم، لكن لماذا؟ قد تكون حسرتهم راجعة إلى أنهم يوم القيامة يرون ثواب متابعيه، وقد فاتهم هذا الثواب؛ حيث كفروا به؛ فيرون من آمن به يُنَعَّم، وهم يعذبون، أو لأن القرآن «شافع مشفع لمن اتبعه وعمل بما فيه وما حل، مُصَدِّقٌ لمن نبذه وراء ظهره ولم يعمل به، فهو حسرة عليهم؛ لأنه يخاصمهم فيخصمهم، ويشهد عليهم فيصدق في شهادته.

أو يذكرون يوم القيامة معاملتهم بالقرآن، فيندمون عليه، ويزيدهم حسرة؛ لأنهم كانوا إذا تلي عليهم القرآن في الدنيا ازدادوا عند تلاوته ضلالًا وكفرًا، وازدادوا به رجسًا إلى رجسهم، كما قال الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ**﴾ [التوبة: ١٢٥]، وهو ليس بسبب لازدياد الرجس، ولكنهم كانوا يحدثون زيادة تكذيب وضلال عند التلاوة؛ فأضيفت الزيادة إلى القرآن؛ إذ كان القرآن هو الذي يحملهم على زيادة التكذيب؛ فهذه المعاملة تزيدهم حسرة يوم القيامة؛ فأضيفت إلى القرآن؛ إذ كان القرآن هو الذي عنده وقعوا فيه، كما أضيف الرجس إليه»(١٠٢). ويحتمل وجهًا آخر أنه «يزيد حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم أن يأتوا بمثله»(١٠٣).

و﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾، أي: الأمر الثابت الذي لا يقبل الشك فهو يقين مؤكد بالحق، من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتقدير: اليقين الحق، وهو فوق علم اليقين، فـ«القرآن عند جميع الخلق أنه حق، قال قتادة: إلا أن المؤمن أيقن به في الدنيا فنفعه، والكافر أيقن به في الآخرة فلم ينفعه»(١٠٤)، وما دام القرآن حق يقيني فكل ما أخبرنا به فهو حق ويقين، وهنا عود على بدأ، فقد أخبرنا القرآن في أول السورة بالحاقة، أي: الآخرة الواقعة يقينًا، والتي تحقّ فيها الحقوق، وينال فيها كلٌّ ما يستحق، فيحقّ بذلك كل ما أخبر به القرآن في الدنيا، فبناء السورة دائري؛ حيث انتهى القول الكريم إلى النقطة التي بدأ منها، فـ«رجع آخر السورة على أولها بإحقاق الحاقة؛ لنفي ما وقع الخبط فيه في دار الاحتجاب بالأسباب من مواقع النقص ومظنات اللبس؛ فيثبت الحق وينفي الباطل فيفرق بين المحسن والمسيء والسعيد والشقي، فيحق السلام لحزب الرحمن، ويثبت الهلاك لأصحاب الشيطان، ويظهر اسمه الظاهر لكل مؤمن وكافر»(١٠٥)، وبناء السورة على هذا النحو يدل على مدى إحكام بنائها وتماسكها، وأن كل ما فيها يقع في دائرة الحق اليقيني الذي لا يداخله أدنى شك.

وجاءت الأخبار في المشهد مؤكدة بأكثر من مؤكد؛ التأكيد بالقسم وإن ولام الابتداء وبتكرار الكلام بمعناه دون لفظه، ويكاد القسم – وهو من أقوى وسائل التوكيد – يسيطر على المشهد من بدايته إلى نهايته؛ حيث تعدد العطف على جوابه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فعطف عليه بالواو: ﴿مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾، و: ﴿لَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٣) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و: ﴿لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، وَ: ﴿إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وَ: ﴿إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾، وَ: ﴿إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وَ: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعلم من حال البشر إنكارهم لحقيقة القرآن ووظيفته إن لم يكن بالمقال فبالحال، وقد ظهر ذلك الإنكار والجحود من مشركي العرب منذ أن قرع القرآن آذانهم مع علمهم بصدقه وصدق مبلغه: **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾** [الأحقاف: ٧، ٨] **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾** [الأحقاف: ١١].

وهذه المؤكدات الجازمة لتؤكد مدى ما بلغه هؤلاء المخاطبون من إنكار للقرآن، ومدى جحودهم إياه، وتعدد هذه الأخبار الممثلة لجواب القسم تأكيد أيضًا على طبيعة القرآن وأنه قول

رسول كريم، ومعنى هذا أنه كلام يحمل الخير، فلا يحمل الخير إلا الكريم، وفي التعبير بـ(كريم) إيماء إلى تعدد المنافع التي جاء بها القرآن، وهذا إجمال يأتي بعده التفصيل من كون القرآن تذكرة للمتقين، وإنذار وتخويف للمكذبين حتى يرعووا ويعودوا، وحزن وحسرة على الكافرين الذين أصروا على عنادهم وجحودهم للقرآن، وكل هذا يندرج تحت: التبشير والإنذار، والترغيب والترهيب؛ مراعاة لطبيعة النفس البشرية التي يكتنفها هذان الجانبان، مما يمثل دعوة صريحة لكل نفس أن تقبل على ما في القرآن من خير، هذا الكتاب المتفرد الذي ليس بشعر ولا بكهانة، وإنما هو تنزيل من رب العالمين الخالق العليم بما يصلح شأن مخلوقيه، وهو كذلك ليس من كلام محمد، ولا هو افتراه أو تقوله كما زعموا؛ لأنه لو فعل ذلك لعوقب بأبشع عقوبة وهي القتل صبرًا، وهو أشنع أنواع القتل، وهذا يدل على علو شأن القرآن ومكانته وقداسته وحرمته؛ فلا يجوز التزيد فيه بأي حال من الأحوال.

لتختم السورة بأسلوب الأمر: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)﴾، والأمر بالتسبيح هنا: «تفريع على جميع ما تقدم من وصف القرآن وتنزيهه عن المطاعن، وتنزيه النبي ﷺ عما افتراه عليه المشركون، وعلى ما أيده الله به من ضرب المثل للمكذبين به بالأمم التي كذبت الرسل، فأمر النبي ﷺ بأن يسبح الله تسبيح ثناء وتعظيم؛ شكرًا له على ما أنعم به عليه من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه»[١٠٦]، وجيء بهذا الأمر للنصح والتوجيه والإرشاد إلى إتباع كل نعمة بتنزيه مسديها، وقد تعدد الأمر بالتسبيح لرسول الله في القرآن بعد ذكر النعم وتكذيب المكذبين له وبهذه النعم، ومنها القرآن[١٠٧].

وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: (فسبح بربك)؛ لأن تنزيه الاسم عن النقائص تنزيه وتعظيم لصاحبه، ثم إن مَنْ يعظم اسم الذات فهو للذات أشد تعظيمًا، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: (فسبح باسم الله)؛ لأن المقام مقام إنعام، والإنعام والنعمة من مقتضيات الربوبية؛ ولذلك يقترن الأمر بالتسبيح بعد الإنعام في القرآن بلفظ (الرب). ولأن الأمر ثقيل على النفس، فالنفس الإنسانية تنفر من الأوامر، هكذا خلقت؛ فلذلك قرن الأمر بالتسبيح بالربوبية؛ حتى يتذكر المأمور فضل آمره وإنعامه عليه بكافة أنواع الإفضال والإنعام فيتقبل الأمر بنفس رضية، لكن حين يستخدم القول الكريم صيغة الماضي أو المضارع فإنهما يقترنان بلفظ الجلالة (الله) الدال على الألوهية، أو يأتيان في سياق الألوهية، أي: استحقاق الله للعبادة وحده، كما في قوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحديد: ١]، وقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي**

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١]، وقوله: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** [الجمعة: ١][١٠٨].

وختامًا:

لقد تنوع أسلوب السورة في تصوير ما تضمنته من أفكار، لكنه في كل حال يحاصر الحس بالمشاهد الحية، المتناهية الحيوية بحيث لا يملك منها فكاكًا، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة.

وقد تنوع الأسلوب في عرض ما تضمنته السورة من أفكار، فهناك العرض التاريخي المركز المنتقي للخطوط البارزة، والصور المؤثرة في الأحداث التي يعرضها. وهناك الوصف والتصوير خلال هذا العرض التاريخي وخلال استعراض مشاهد القيامة. كذلك نرى إحياء المواقف عن طريق التمثيل والحوار كما يتضح في مشهد الناجي ونجواه الذاتية: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ...﴾، ومنظر الهالك المعذب وحديثه الباكي النادم ونجواه الداخلية بالاعتماد على أسلوب التمني: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ ثم في الحديث الموجه إلى كل منهما: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، ﴿خُذُوهُ، فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، والأسلوب – بعدوله عن الحديث بضمير الغائب عن أهل الجنة والنار إلى توجيه الخطاب لهم ثم فسح المجال أمامهم ليصوروا ما هم فيه – قد أحيا المشهد وأبرز الصورة، فضلًا عن أنه قرن التكريم المادي ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ بالتكريم المعنوي ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ فتجلى التكريم والإعظام في أبهى صوره، كما قرن العذاب المادي ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ بالعذاب المعنوي ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾، فتجلت الإهانة والتقريع في هذا الحديث المشعر بالإهمال والتحقير.. فتتجلي بذلك عظمة الأسلوب القرآني في تصوير سعادة المؤمنين الناجين وجزع الكافرين الهالكين، يتضح ذلك في تلك الفرحة الغامرة التي تشمل المؤمن والتي تجعله يطير في الهواء ويصيح فرحًا ويطلب ممن حوله مشاركته في سعادته وإسماعه ما خط في كتاب نجاته ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ مناجيًا نفسه بألفاظ قليلة مرطبة بشكر ربه وتقديسه ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ...﴾. أما الكافر فهو يطنب في الكلام تنفيسًا عن شحنة الكرب التي تحرق جوانحه ويتمنى ما يستحيل وقوعه. ويندم ولات ساعة مندم! وتتوالى زفراته الملتاعة ممثلة في المدات التي جاءت في حديثه والتي ابتدأها بـ(يا) التي تمثل صرخة دامية تجسد واقعه الأليم أو تكرار (عني) في آيتين متتاليتين على لسانه، يزيد من تجسيد هذا الواقع ويبرز ضآلة الكافر الذي أعماه ماله وسلطانه فتنكب الطريق السوي وأمعن في الضلال.

وقد غلب على السورة جو الترهيب والتحذير؛ فانعكس ذلك في إيقاعها ومعجمها وتراكيبها وصورها، فجاء إيقاعها هادرًا عنيفًا في كثير من المواطن، فكثر التكرار، واستخدم الجناس، وقصرت الآيات وتلاحقت، وغلبت الأصوات الجهيرة الشديدة على الأصوات المهموسة، وتوالت المدود التي من طبيعتها أن تؤدي إلى جهارة الصوت، هذا فضلاً عن الفواصل في نهايات الآيات.

وغلب على المعجم المفردات المنتمية إلى الحقول الدلالية الدالة على التعنيف والهلاك والدمار والخراب والقتل والندم والحسرة ... إلخ.

كما اختلفت التراكيب في الآيات بحيث استعملت الجمل الفعلية في تصوير الحوادث المتجددة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ... فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ... سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ... وَجَاءَ فِرْعَوْنُ... فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ، فَأَخَذَهُمْ﴾ وكما يلاحظ، بدأت هذه الجمل الفعلية بالفعل الماضي دلالة على تحقق ما حدث والجزم بوقوعه، كذلك بدأت به في الحديث عن المستقبل المحقق الوقوع ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ... وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ... وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، أما إذا كان فعلها مضارعًا فإن الهدف هو استحضار الموقف ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى... فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ.... وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾. وجاءت الجمل الاسمية للدلالة على الثبات والاستقرار ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ... إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ... تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ... وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ... وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

كما وجدنا الجمل الإنشائية التي تبدأ بالاستفهام للدعوة إلى التأمل والتفكير: ﴿مَا الْحَاقَّةُ؟ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ؟﴾ أو للنفي ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟﴾، أو تبدأ بالتمني تجسيدًا للحسرة ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ... يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾، أو تشتمل على الأمر: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ...﴾ الدال على التعطف والتلطف، و﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ للدلالة على الحزم والجزم في إيقاع العقوبة، و﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ لإفادة الحث والحض.

وجاءت الصور مركزة معبرة أدق تعبير، مثيرة للوجدان والمشاعر، مثل: صورة الصيحة الطاغية، وصورة الريح الصرر العاتية، وصورة قوم عاد الصرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وصورة مجيء فرعون، وصورة الائتكاف بقوم لوط، وصورة المؤمن الفرح، وصورة الخاسر المبتئس، ... إلى آخر تلك الصور الحركية والحسية والمعنوية التي تعاضد في تشكيلها المعجم والتقنيات الفنية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ... إلخ، بالإضافة إلى السرد والحوار والوصف؛ وذلك للوصول إلى التأثير الوجداني والإقناع العقلي.

وخلاصة القول: إن سورة الحاقة اعتمدت التركيز والتكثيف الأدائي في كل مراحلها، حتى إننا لنجد كلمة واحدة تعبر عن صورة كاملة، وهذا أدى إلى التكثيف الدلالي؛ فجاء المعنى مكتنزًا بالعديد من الدلالات التي تخدم القضية التي تثيرها السورة: قضية تصحيح العقائد الفاسدة وترسيخ العقيدة الجديدة التي أتى بها الإسلام.

الهوامش:

(١) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس (دار الهداية، مصر) ٧١/٣. وراجع: الرازي: مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد (المكتبة العصرية، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م) ص١٥١.

(٢) راجع: مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط (دار الدعوة، القاهرة) ٧٠٣/٢.

(٣) عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه – دراسة ونقد (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٤هـ–٢٠١٣) ص٢١.

(٤) وليد قصاب: دراسات في النقد الأدبي (دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م) ص٣٨.

(٥) ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب، ترجمة: حميد لحمداني، (دار النجاح، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣م) ص١٩.

(٦) عدنان ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م) ص٤٤.

(٧) راجع: محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م) ص١٥.

(٨) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط٣، د. ت.) ٢٠٢/١–٢٠٤.

(٩) مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي: تفسيره، تحقيق: عبد الله محمود شحاته (دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ) ٤٢١/٤.

(١٠) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م) ٢٠٥/٢٣.

(١١) الماتريدي: تفسيره (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: مجدي باسلوم (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م) ١٦٣/١٠.

(١٢) السابق، الصفحة نفسها.

(١٣) راجع: السابق، الصفحة نفسها.

(١٤) راجع: الخطابي: بيان إعجاز القرآن، مطبوعة ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام (دار المعارف، مصر، ط٥، ٢٠٠٨م) ص٤٠.

(١٥) الماتريدي: تفسيره (تأويلات أهل السنة) ١٠/١٦٤.

(١٦) ابن سيده: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال (دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ=١٩٩٦م) ٢/٥٠.

(١٧) الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م) ١/١٥٧.

(١٨) ابن عجيبة: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي (القاهرة، ١٤١٩هـ) ٧/١٢٠، ١٢١.

(١٩) النسفي: تفسيره (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تحقيق: يوسف علي بديوي (دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م) ٣/٥٢٨.

(٢٠) الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص٢٩.

(٢١) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة) ٢٠/ ٣٤٢.

(٢٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٢٣) الرماني: رسالة منازل الحروف، تحقيق: إبراهيم السامرائي (دار الفكر، عمان) ص٥٦.

(٢٤) ناظر الجيش: شرح التسهيل المسمى: تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق: على محمد فاخر وآخرين (دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ) ٩/٤٥٠٥، ٤٥٠٦.

(٢٥) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م) ١٨/٢٥٨.

(٢٦) الماتريدي: تفسيره (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: مجدي باسلوم، ١٠/١٦٥.

(٢٧) السابق، ١٠/ ١٦٦.

(٢٨) راجع: النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣/٥٢٩.

(٢٩) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٥٨/١٨.

(٣٠) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٣/ ٢٠٩.

(٣١) ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ) ٥/ ٣٥٧.

(٣٢) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٢٥٨.

(٣٣) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣٤٣/٢٠.

(٣٤) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م) ١١٦/٢٩.

(٣٥) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٢٥٩.

(٣٦) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣٤٣/٢٠، ٣٤٤.

(٣٧) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١١٧/٢٩.

(٣٨) الماتريدي: تأويلات أهل السنة، ١٦٦/١٠.

(٣٩) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣٤٤/٢٠، ٣٤٥.

(٤٠) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٦٠.

(٤١) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١١٨/٢٩.

(٤٢) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١١٨/٢٩.

(٤٣) الاستخدام، هو: اللفظ يكون له معنيان، وكلاهما مقصود مستخدم، فهنا النخل يمكن أن يكون المقصود بها المعنى المباشر بدليل إضافة (أعجاز) إليها، وقد تكون بمعنى الحديقة بدليل وصفها بـ(خاوية)، وقد وصفت الحديقة بهذا الوصف في آية أخرى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

(٤٤) راجع: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣٤٦/٢٠. ومحمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١١٨/٢٩، ١١٩.

(٤٥) ابن جزي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: د. عبد الله الخالدي (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ) ٣٢٤/٢.

(٤٦) راجع: الماوردي: تفسيره النكت والعيون، تحقيق: السيد عبد المقصود عبد الرحيم (دار الكتب العلمية، بيروت) ٧٨/٦.

(٤٧) فذلكة بمعنى: خلاصة أو مجمل.

(٤٨) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١١٨/٢٩.

(٤٩) إسماعيل حقي مصطفى: روح البيان (دار الفكر، بيروت) ١٣٤/١٠.

(٥٠) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٥١) إسماعيل حقي مصطفى: روح البيان، ١٣٥/١٠.

(٥٢) الماتريدي: تفسيره تأويلات أهل السنة، ١٠/١٦٩.

(٥٣) محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم (دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٨م) ١٥/٧٣.

(٥٤) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٢٦٢.

(٥٥) السابق، ١٥/٧٣.

(٥٦) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/ ٣٥١.

(٥٧) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/١٢٤.

(٥٨) الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ) ١٥/٤٩.

(٥٩) د. محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٥/٧٥.

(٦٠) راجع: محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/١٢٥.

(٦١) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/ ٣٥٤.

(٦٢) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٨/٢٦٢.

(٦٣) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/١٢٩.

(٦٤) راجع: السابق، ٢٩/١٢٨.

(٦٥) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/ ٣٥٨، ٣٥٩.

(٦٦) السابق، ٢٠/٣٦٠.

(٦٧) السابق، ٢٠/٣٦٢، ٣٦٣.

(٦٨) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/١٣٢.

(٦٩) راجع: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/٣٦٢، ٣٦٣.

(٧٠) راجع: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/ ٣٦٣، ومحمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/١٣٣.

(٧١) راجع: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/٣٦٤.

(٧٢) راجع: السابق، ٢٠/٣٦٥.

(٧٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ) ٣٠/٦٢٩.

(٧٤) راجع: السابق، ٣٠/٧٥٦.

(٧٥) راجع: السابق، ٣٠/٦٢٩.

(٧٦) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٠/٣٦٤.

(٧٧) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ٣٠/ ٦٣٠.

(٧٨) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/ ١٣٥.

(٧٩) السابق، ٢٩/ ١٣٦.

(٨٠) الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص٤٤.

(٨١) محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، ١٠/ ١٥٦٣.

(٨٢) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ) ١٤٩/٥.

(٨٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ٦٣٣/٣٠.

(٨٤) أبو بكر البيهقي: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق: أحمد عصام الكاتب (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ) ص٢٦٨.

(٨٥) الماتريدي: تأويلات أهل السنة، ١٨٩/١٠.

(٨٦) مكي بن أبي طالب القيسي الأندلسي: الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه (كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م) ١١٧/١.

(٨٧) الماتريدي: تأويلات أهل السنة، ١٨٩/١٠.

(٨٨) السابق، ١٩٠/١٠.

(٨٩) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ٦٣٤/٣.

(٩٠) راجع: البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: سليمان مسلم الحرش (دار طيبة للتوزيع والنشر، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م) ٢١٤/٨.

(٩١) جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ) ٦٠٦/٤.

(٩٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ) ٢٣٣/٨.

(٩٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ٤٣٣/٢٩.

(٩٤) البقاعي: نظم الدرر، ٣٧٩/٢٠.

(٩٥) السابق، الصفحة نفسها.

(٩٦) السابق، ٢٨٠/٢٠- ٣٨١.

(٩٧) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٣/ ٣٤٣.

(٩٨) البقاعي: نظم الدرر، ٣٨١/٢٠.

(٩٩) السابق، الصفحة نفسها.

(١٠٠) الماتريدي: تأويلات أهل السنة، ١٩٢/١٠.

(١٠١) السابق، ١٠/١٩٢، ١٩٣.

(١٠٢) السابق، ١٠/١٩٣.

(١٠٣) الماوردي: النكت والعيون، ٦/٨٧.

(١٠٤) السابق، ٦/٨٨.

(١٠٥) البقاعي: نظم الدرر، ٢٠/٣٨٥.

(١٠٦) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/١٥١.

(١٠٧) راجع – أيضًا – سور: الحجر [الآية: ٩٨]، والواقعة [الآية: ٧٤، و٩٦] وق [الآية: ٤٠]، والطور [الآية: ٤٩]، والنصر [الآية: ٣].

(١٠٨) راجع – أيضًا – سور: الحشر [الآية: ١]، والصف [الآية: ١]، والإسراء [الآية: ٤٤]، والنور [الآية: ٣٦]، والتغابن [الآية: ١].

مصادر البحث ومراجعه[١٠٨]

١- الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي: تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م).

٢- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ).

٣- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: سليمان مسلم الحرش (دار طيبة للتوزيع والنشر، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).

٤- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ).

٥- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة).

٦- أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق: أحمد عصام الكاتب (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ).

٧- أبو بكر الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي: مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد (المكتبة العصرية، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٨- ابن جزي الكلبي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله: التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: د. عبد الله الخالدي (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ).

٩- أبو الحسن الرماني، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله: رسالة منازل الحروف، تحقيق: إبراهيم السامرائي (دار الفكر، عمان).

١٠- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي: بيان إعجاز القرآن، مطبوعة ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام (دار المعارف، مصر، ط٥، ٢٠٠٨م).

١١- الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس (دار الهداية، مصر).
١٢- الزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ).
١٣- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال (دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ=١٩٩٦م).
١٤- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م).
١٥- ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان (القاهرة، ١٤١٩هـ).
١٦- عدنان ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م).
١٧- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه – دراسة ونقد (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣).
١٨- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ).
١٩- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ).
٢٠- أبو الفداء، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي: روح البيان (دار الفكر، بيروت).
٢١- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م).

٢٢- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ).
٢٣- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي: تفسيره النكت والعيون، تحقيق: السيد عبد المقصود عبد الرحيم (دار الكتب العلمية، بيروت).
٢٤- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط (دار الدعوة، القاهرة).
٢٥- محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم (دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٨م).
٢٦- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م).
٢٧- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط٣، د. ت.).
٢٨- محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م)
٢٩- مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي: تفسيره، تحقيق: عبد الله محمود شحاته (دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ).
٣٠- مكي بن أبي طالب القيسي الأندلسي: الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه (كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م).
٣١- أبو منصور الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود: تفسيره (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: مجدي باسلوم (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م).
٣٢- ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب، ترجمة: حميد لحمداني، (دار النجاح، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣م).
٣٣- ناظر الجيش، محب الدين الحلبي محمد بن يوسف بن أحمد: شرح التسهيل المسمى: تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق: على محمد فاخر وآخرين (دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ).

٣٤- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود: تفسيره (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تحقيق: يوسف علي بديوي (دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م).

٣٥- وليد قصاب: دراسات في النقد الأدبي (دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م).